

سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

حِينَ يُصْعَدُ صَوْتُ الْمُظْلُومَةِ إِلَى السَّمَاءِ،
وَتَنْزِلُ الْآيَاتُ لِتَقِيمَ الْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ



تأليف: رَدَادِ السَّلَامِي

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

حِينَ يَصْعَدُ صَوْتُ الْمَظْلُومَةِ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَنْزِلُ الْآيَاتُ لِتُتِمَّ الْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

حين لا يضيع الصوت في ملكوت الله
ثمة سورٌ تفتح أبوابها للروح من أفق الكون الواسع، فتريك امتداد السماوات، وتعاقب الليل والنهار، ومسير الشمس والقمر، وثمة سور تأخذك إلى ساحات التاريخ، فتمر بك على مواكب الأنبياء، وصعود الأمم وسقوطها؛ أما سورة المجادلة فتفتح بابها من بيت صغير، ومن قلب امرأة ضاق به الألم حتى لم يجد إلا أن يرفع شكواه إلى الله. لا تبدأ السورة بصوت جيش، ولا بخطاب ملك، ولا بمحادثة تهتز لها خرائط الأرض، بل تبدأ بصوت امرأة تجادل في زوجها، وتحاول أن تنقذ كرامتها وبيتها من كلمة قيلت في لحظة غضب. غير أن هذا الصوت الذي ربما خفت في أسمع الناس لم يخف في ملكوت الله؛ فنزل القرآن يعلن، في أول كلمة من السورة، أن السماء قد سمعت: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾. وكأن الوحي يريد أن يعيد ترتيب مقاييسنا منذ البداية، فيخبرنا أن الحدث لا يكون عظيمًا بكثرة من يراه، بل بمقدار ما يحمله من حق، وأن الإنسان لا يحتاج إلى جاه أو سلطان حتى تبلغ قضيته رب العالمين، وأن الهمة الصادقة قد تصعد إلى السماء حين تسقط الخطب الصاخبة قبل أن تتجاوز أفواه أصحابها.

إنها سورة السمع الإلهي المحيط، قبل أن تكون سورة الأحكام والنجوى والمجالس. في ظلالها يشعر الإنسان أن حياته لا تقع في فراغ، وأن كلماته لا تبدد في الهواء، وأن دموه لا تسقط خارج علم الله. فما من حوارٍ يدور خلف بابٍ مغلق، ولا نجوى تخفض بها الأصوات، ولا شكوى يعجز صاحبها عن إحكام عبارتها، إلا وهي واقعة تحت سمع الله وبصره وعلمه. ولعل أوجع ما يصيب المظلوم ليس الظلم وحده، بل شعوره بأنه غير مسموع؛ أن يتكلم فلا يجد قلبًا ينصت، وأن يشرح ألمه فيتهم بالمبالغة، وأن يرفع صوته قليلًا لأن صمت الآخرين طال، فيلام على صوته وينسى الجرح الذي أخرجه. فتأتي السورة لتقول لكل قلبٍ حاصرته الوحشة: قد سمع الله. سمع الكلمة وما وراءها، والدمعة قبل انحدارها، والارتجاف الذي أخفته العبارة، والحكاية التي لم تستطع اللغة أن تحملها كاملة.

لكن سورة المجادلة لا تكفي بأن تواسي المظلوم بإحاطة السمع الإلهي؛ بل تنزل إلى الكلمة التي صنعت الظلم، فتفكك سلطانها وتردها إلى حقيقتها. كان الرجل في الجاهلية يستطيع أن يلقي لفظًا واحدًا فيجعل المرأة معلقة بين الزوجية والفراق، كأن اللغة صارت أداة في يد القوي يغير بها حقائق الحياة ويحبس بها الضعيف داخل حكم لا مخرج منه. فجاء القرآن ليعلن أن الكلمات، على عظيم أثرها، لا تخلق الحقائق كما تشاء الأهواء، وأن تكرار الباطل لا يحيله حقًا، وأن العرف إذا ظلم لا تكتسبه قدمه قداسة. وهكذا تقيم السورة ميزانًا دقيقًا للكلمة: فهي ليست هواءً عابرًا ينسى بمجرد أن يهدأ الغضب، وليست كذلك قوة مطلقة تستطيع أن تبدل

طباع الأشياء؛ إنها مسؤولية، لها أثرٌ وتبعة، ويحتاج جرحها إلى إصلاح، ويحتاج صاحبها إلى توبةٍ تعيد تربية اللسان والقلب معاً.

ومن بيت المرأة تضي السورة إلى مجالس الجماعة، كأنها تريد أن تقول إن العدل لا يتجزأ؛ فمن لم يتعلم إنصاف الإنسان في بيته لن يحسن إقامة العدل في مجتمعه، ومن ضاق بأقرب الناس إليه قد يضيق بالناس جميعاً إذا خالفوه أو زاحموه. وفي المجالس تُختبر النفوس بأشياء تبدو صغيرة: موضع يتسكك به أحدهم، ومساحة يُطلب إليه أن يفسحها، وقادمٌ ينتظر أن يعترف بحقه في الحضور. غير أن السلوك الصغير يكشف أحياناً عن مرضٍ كبير، فقد يكون ضيق المقعد صورةً لضيق القلب، وقد يكون احتكار المجلس مقدمةً لاحتكار الرأي والقرار والمكانة. لذلك تنزل الآية بالأمر الرفيق العميق: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾. ما أوسع هذا الجزاء! يفسح الإنسان مقدار جسدٍ لأخيه، يفسح الله له من الرحمة والطمأنينة والرزق والطريق ما لا تحده العبارة. يتنازل عن وهم المركز قليلاً، فيمنحه الله رفعةً لا يصنعها موضعٌ قريب ولا صفٌ أول.

ثم تدخل السورة إلى المناطق التي يظن الإنسان أنها محجوبةٌ عن الرقيب: مناطق النجوى والهمس وتدير السرائر. هناك، حيث تقترب الرؤوس وتخفض الأصوات ويحسب المتناجون أن الجدران قد أغلقت عليهم عالمهم الصغير، تفتح السورة نافذة العلم الإلهي: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. إنها معية العلم والإحاطة والسمع والبصر، تليق بجلال الله سبحانه، لا يحيط به مكان ولا يشبهه شيء من خلقه. وفي هذه الحقيقة رهبةً للمفسدين وأنسٍ للصالحين؛ فمن تناجى بالإثم عرف أن خفض الصوت لا يخفّضه عن سمع الله، ومن خلا بأخيه على برٍّ وتقوى أيقن أن الخير الذي غاب عن أعين الناس لم يغيب عن رب الناس. وهكذا لا تلغي السورة السر، لكنها تطهره؛ لا تمنع أن يتناجى الإنسان مع غيره، لكنها تسأله: ماذا تحمل هذه النجوى؟ أتحمل سترًا محتاج، وإصلاحاً بين متخاصمين، ومواساةً لمكسور، أم تحمل غيبةً وعدواناً ومؤامرةً تنغذى على آلام الآخرين؟

وفي قلب هذه المشاهد يظهر الشيطان لا بوصفه قوةً تقهر الإنسان قهراً، بل بوصفه وسواساً يعرف من أين يدخل إلى النفس. إنه يستعمل النجوى ليحزن المؤمنين، ويضخم في القلب احتمالات الضرر، ويجعل الهمسة البعيدة عاصفةً في الخيال. وما أكثر ما يستهلك الإنسان عمره في أذى لم يقع، ولكنه وقع في ذهنه مرات! وما أكثر ما يخوض معارك مع ظنونٍ لا وجود لها، ويحمل نظرات الناس وكلماتهم من المعاني ما لم تحمله، حتى يضيق عليه حاضره بمستقبل تخيله ولم يأت. هنا ترد السورة القلب إلى مركز الأمان: ﴿وَلَيْسَ بِضَارٍّ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. لا تنفي وجود الخطر، ولا تدعو إلى الغفلة عن الأسباب، لكنها تتنزع من الأسباب وهم استقلالها، وتعلم المؤمن أن يحذر من غير هلع، وأن يستعد من غير أن يعبد الخوف، وأن يرى خطط الناس كلها واقعةً تحت سلطان الله لا خارجةً عليه.

وعلى الضفة الأخرى ترسم السورة ملامح النفوس التي استبدلت الصدق بالأقعة، فجعلت الأيمان ستاراً للكذب، واتخذت من الكلمات المقدسة جداراً تحتمي وراءه. إنها صورة مروعة لانقلاب الفطرة: أن يستعمل الإنسان اسم الله لا لينمعه من الخيانة، بل ليقنع الآخرين بأنه لم يخن؛ وأن تتحول العبارة الدينية من نور يكشف الباطن إلى طلاء يخفي فساد. هؤلاء يعيشون بين الصفوف، لا هم من المؤمنين ولا هم من أوليائهم الآخرين، لأن الخيانة لا تمنح صاحبها انتماءً حقيقياً. إنهم غرباء عن الجميع، يحملون لكل مجلس وجهاً، ولكل جماعة رواية، حتى يصبح الكذب وطنهم الوحيد. ثم يطول بهم المقام فيه إلى درجة أنهم يعيشون يوم القيامة فيحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس، فقد صار الكذب هيئة راسخة في أرواحهم، لا حيلة عابرة على ألسنتهم.

وبين المرأة التي شكت، والمنافقين الذين أخفوا، والمؤمنين الذين أفسحوا وأطاعوا، تمضي السورة نحو خاتمها الكبرى، حيث تنكشف حقيقة الانتماء. ليس الإنسان ما يدعيه عن نفسه، بل الجهة التي يخاز إليها قلبه حين تتعارض الروابط. فقد يحب المرء أباه وابنه وأخاه وعشيرته، ويؤدي إليهم حقوقهم، ويبرهم ويحسن إليهم؛ لكن الإيمان يسأله عند المفترق: أأكون الحق تابعاً لمن تحب، أم يكون حبك محكوماً بالحق؟ هنا لا تدعو السورة إلى قسوة تقطع الأرحام، وإنما تحرر القلب من العصبية التي تجعل القرب مصيباً لأنه قريب، والبعيد مخطئاً لأنه بعيد. إن الإيمان لا يقتل العاطفة، بل يطهرها من العبادة، فلا يبقى في القلب شيء يملك أن يساومه على الله.

وحين ينجح المؤمن في هذا الامتحان، تبلغ السورة أجمل أسرارها: ﴿أَوَّلِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾. يا لها من منزلة! ليس الإيمان كلمة تمر على اللسان، ولا حماسة تشتعل في مجلس، ولا معرفة يقيمها العقل في أطرافه ثم لا تنزل إلى القرار؛ إنه كتابة إلهية في القلب، نقش من النور يثبتته الله في موضع الثقل. وحين يكتب الإيمان في القلب لا يعني ذلك أن صاحبه لا يحزن ولا يضعف ولا يتردد، بل يعني أن في داخله أصلاً ثابتاً يعود إليه كلما بعثرته الرياح، وأن له جهة لا يفقدها وإن اضطربت خطواته. ثم يؤيده الله بروج من عنده، بقوة ونور وثبوت، حتى لا يكون ثباته ثمرة غرور بنفسه، بل ثمرة افتقار إلى ربه.

هذه الرحلة، إذن، ليست قراءة في أحكام متفرقة، بل دخول إلى عالم تتصل فيه أدق حركات الإنسان بأعظم حقائق الإيمان. كلمة الزوج في بيته متصلة بحدود الله، وفسحة المقعد متصلة بفسحة الرحمة، والهمسة في الظلام متصلة بيوم الحشر، والعلم متصل بالرفعة، والولاء متصل بمصير القلب، والصدق متصل بالنجاة. إن السورة تهدم الوهم الذي يقسم الحياة إلى أمور دينية كبرى وتفصيل دينية صغيرة؛ ففي ميزان الوحي قد تكشف طريقة جلوسك عن مقدار تواضعك، وقد تكشف نجواك عن حقيقة تقواك، وقد تكشف كلمة عابرة عن بناء كامل من الكبر أو الرحمة داخل قلبك.

فلندخل هذه السورة دخول من يبحث عن نفسه بين آياتها، لا دخول من يفتش عن عيوب الآخرين. لنسمع في شكوى المرأة أوجاع الذين لم نحسن الإصغاء إليهم، ولنز في حكم الظهار كل كلمة ألقيناها ثم تركنا غيرنا يعيش طويلاً تحت أثرها، ولنفتش في مجالسنا عن المواضع التي احتكرناها، وفي نجوانا عن الغائبين الذين جعلنا أعراضهم مادةً لأحادِيثنا، وفي أيماننا عن الصدق الذي ينبغي أن يغني عن كثرتها، وفي روابطنا عن عاطفة ربما قدمناها يوماً على العدل. ولنقرأ السورة وكل واحد منا يسأل قلبه: هل يذكر الله حين يخلو؟ هل يفسح للناس كما يحب أن يفسح الله له؟ هل يطلب الرفعة بالعلم أم يطلب العلم ليتهدي؟ هل يعيش بوجه واحد، أم يوزع وجوهه على المجالس؟

إن الطريق من ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ إلى ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ هو الطريق من الشعور بأن الله يسمعنا إلى الحياة على النحو الذي يرضيه عنا. فمن أيقن أن الله يسمع شكواه، وجب أن يوقن أنه يسمع نجواه؛ ومن اطمأن إلى علم الله بألمه، وجب أن يخشى علمه بما يصنعه من ألم للآخرين. تلك هي الموازنة التي تقيمها السورة في القلب: لا تياس، لأن الله يسمعك؛ ولا تتجراً، لأن الله يسمعك. وبين الرجاء والهيبه يولد الإنسان المؤمن: قلبه مرفوع إلى السماء، ولسانه محفوظ من الظلم، ويده ممدودة بالخير، ومجلسه يتسع للناس، وسريته لا تستوحش من نظر الله. فإذا اكتملت فيه هذه المعاني، لم يعد أعظم رجائه أن يسمع الناس اسمه، بل أن يكون ممن كتب الله في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروج منه، ورضي عنهم ورضوا عنه؛ وذلك هو الفلاح الذي لا تعقبه خسارة، والرضا الذي إذا بلغه القلب لم يطلب بعده وطناً.

مدخل إلى السورة: السماء التي تسمع الهمس

ليست سورة المجادلة حديثاً عن امرأة جاءت تشكو زوجها فحسب، ولا هي مجموعة أحكام متفرقة في الظهار والمجالس والنجوى والولاء؛ إنما هي سورة تعيد بناء شعور الإنسان بموقعه تحت سمع الله وعلمه، وتكشف له أن حياته كلها تقع في فضاء إلهي لا تضيق فيه كلمة، ولا تختفي فيه نجوى، ولا تنسى فيه مظلمة، ولا يتيه فيه أنين. تبدأ السورة من بيت صغير اضطربت فيه حياة امرأة، وتنتهي عند حد فاصل يقسم الوجود الإنساني إلى حزين: حزب غلبته روابط الأرض حتى خاصم الله ورسوله، وحزب كتب الله في قلوب أفرادها الإيمان وأيدهم بروج منه. وبين البداية والنهاية تمتد رحلة عجيبه من الشكوى الفردية إلى الموقف الحضاري، ومن شأن الأسرة إلى شأن الأمة، ومن كلمة يقولها الزوج في لحظة غضب إلى كلمة يتناجى بها المنافقون في الظلام، ومن مجلس يضيق فيه بعض الناس ببعض إلى جنة تجري من تحتها الأنهار؛ كأن السورة تقول: إن بناء حزب الله يبدأ من تصحيح الكلمة في البيت، ومن إنصاف المظلوم، ومن تهذيب المجلس، ومن تطهير السريرة، ومن استحضار السمع الإلهي في كل ما يقال وما يخفى.

والإسم نفسه يوقظ الدهشة: «المجادلة». امرأة لم تُنمَح من المشهد، ولم يبتلعها اسم زوجها، ولم تقدم بوصفها رقماً هامشياً في حاشية التاريخ، بل خلد فعلها؛ لأنها وقفت تطلب الحق، وتحاور

في أمر أسرتها، وترفض أن تتحول كلمة جاهلية إلى قدرٍ يسحق حياتها. لقد سمعت السماء جدالها، لا لأنها كانت صاحبة جاه أو سلطان، ولكن لأنها كانت صاحبة وجم وصدق، ولأن الله الذي يسمع دويّ الأفلاك لا يشغله اتساع ملكه عن ارتعاشة قلبٍ في بيتٍ صغير. وفي هذا أول تحريرٍ للإنسان: أن قيمتك عند الله لا تُقاس بموقعك في عيون الناس، وأن صوتك لا يحتاج إلى منبرٍ عظيم حتى يبلغ السماء، وأن القضية التي يراها العالم شأنًا منزليًا ضئيلاً قد تكون عند الله من الأهمية بحيث ينزل فيها قرآنٌ يُبلى إلى قيام الساعة.

الآيات الأولى: حين يسمع الله انكساراً لم يسمعه الناس

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

تبدأ السورة بـ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾، وكأن أول ما يحتاج إليه القلب المكسور ليس أن نغير الوقائع فوراً، بل أن يعلم أن الله قد سمع. قبل الحكم تفد التسلية، وقبل تفصيل الكفارة ينزل اليقين، وقبل أن نُحلَّ العقدة الخارجية تُمسح الوحشة الداخلية: لقد سمع الله. فما أقسى المصيبة حين يضاف إليها شعور الإنسان بأنه يتكلم في فراغ، وأن وجعه لا يبلغ أحداً، وأن الكلمات ترد إليه كأن بينه وبين العالم جداراً أصم؛ وما أرحم البلاء حين يسكن القلب يقيناً بأن الله يسمع، لأن الوجد عندئذ لا يعود ضائعاً، والدمعة لا تعود سائلةً خارج سجل الرحمة، والشكوى لا تبقى حائرة تبحث عن يحملها. إن بعض الانكسارات لا يقتلنا بقوته، بل يقتلنا بما يزرعه فينا من إحساسٍ بأننا وحدنا؛ فتأتي هذه الآية لتنتزع من قلب المظلوم أقسى شوكة: شوكة الوحدة.

ولم يقل السياق: قد سمع الله صوتها لحسب، بل قال: ﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾؛ فالذي بلغ الله لم يكن صوتاً مبهماً، وإنما كان قولاً معلوماً بمعانيه، ودوافعه، وارتجافاته، وما خلف ألفاظه من خوفٍ على البيت، وحنينٍ إلى الصحبة، وقلقٍ على الأبناء، وإحساسٍ بالإهانة، ورجاءٍ في أن يجد الوحي لها مخرجاً. يسمع البشر الكلمات، وقد لا يسمعون ما وراءها؛ يسمعون العبارة ولا يبلغون الجرح الذي أنشأها، وقد يرون انفعال المشتكي ولا يرون سنوات الصبر التي تجمت وراء ذلك الانفعال. أما الله فيسمع القول ومعه تاريخه الكامل، ويسمع النبوة ومعها الحقيقة التي لم تستطع النبوة أن تحملها، ويسمع الصمت الذي وقع بين جملتين كما يسمع الجملتين، ويرى في القلب ما تعجز اللغة عن نقله.

وما أرقُّ هذا التعبير: ﴿فِي زَوْجِهَا﴾. إن مجادلتها لم تكن رغبةً في الانتصار على الرجل، بل كانت بحثاً عن إنقاذ العلاقة من كلمة ظالمة، ومحاولة لحماية الأسرة من حكم جاهلي يجعل الغضب سيفاً يقطع ما بناه العمر. كانت تجادل «في زوجها»، أي في القضية المتعلقة به، وفي الرابطة التي اضطربت بينهما، وفي المصير الذي صار معلقاً بكلمة. وهنا تظهر إنسانية الشريعة؛ فهي لا تنظر إلى الأسرة باعتبارها نظاماً جامداً تُطبَّق عليه مواد صماء، بل تنظر إلى القلوب

المحصرة داخل الأزمة، وإلى المرأة التي لا تريد أن تظلم ولا تريد، في الوقت نفسه، أن ينهدم بيتها. إن العدل الإلهي لا يطلب دائماً أن تمزق الروابط عند أول خطأ، ولا يسمح كذلك أن نحافظ عليها بإهدار كرامة أحد أطرافها؛ وإنما يفتح طريقاً يجتمع فيه تصحيح الخطأ مع إمكان استبقاء الرحمة.

ثم قال: ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾. لم تكن شكواها من الله، بل إلى الله؛ وبين العبارتين مسافة الإيمان كله. الشكوى من الله اعتراض على حكمته، أما الشكوى إليه فافتقار إلى رحمته. الأولى تحمل في باطنها اتهاماً، والثانية تحمل في أعماقها ثقة بأنه الملجأ. ويستطيع المؤمن أن يبكي، وأن يصف ضيقه، وأن يقول: مسني الضر، وأن يعترف بأنه لم يعد يحتمل؛ من غير أن يخرج بذلك من مقام الرضا، لأن الرضا لا يعني أن يتحول الإنسان إلى صخرة لا تنألم، وإنما يعني أن يظل قلبه متجهماً إلى الله وهو يتألم. يعقوب عليه السلام قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَيْنِي وَخِزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، وأيوب نادى ربه أن الضر قد مسه، وهذه المرأة تشتكي إلى الله؛ فكأن درب الصالحين ليس درباً خالياً من الأثنين، بل دربٌ يعرف الأثنين فيه بابه الصحيح.

ثم تسع الآية من المرأة وحدها إلى الحوار كله: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾. يسمع كلماتها وكلمات النبي ﷺ، سؤلها وجوابه، مراجعتها وتلطفه، ما ارتفع من الكلام وما خفت. إن كلمة «تجاوزكما» ترسم حركة القول ذهاباً وإياباً؛ كلامٌ يعود إلى صاحبه ثم يخرج من جديد، ومشكلة لا يكفيها جوابٌ عابر، وقلبٌ يكرر شرح حاجته لأنه لم يجد بعد في الجواب ما يطفى اضطرابه. وفي ذلك تكريمٌ للحوار الصادق؛ فالوحي لم يرب الناس على أن الصمت أمام الإشكال فضيلة في ذاته، ولا على أن السؤال سوء أدب، ولا على أن مراجعة صاحب العلم خروجٌ على الوقار. لقد جادلت امرأة نبياً، فلم يمح جدالها، بل جعله الله بوابةً لنزول الحكم. حين يكون المراد هو الحق، وحين تحفظ حرمة الخطاب، وحين لا يتحول النقاش إلى طلب غلبة أو تشفي، يصبح الحوار طريقاً من طرق انكشاف الصواب.

وإذا كانت الآية قد افتتحت بالسمع، فإنها خُتمت بالسمع والبصر: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. يسمع المقال ويرى الحال؛ يسمع الدعوى ويرى الملابسات؛ يسمع ما يقوله القوي ويرى ما يفعله، ويسمع أنين الضعيف ويرى ما يقع عليه. فقد تستطيع الكلمات أن تتزين، وقد يتقن الظالم رواية الحكاية على نحو يجعله بريئاً، ولكن البصر الإلهي يهتك ما تحاول البلاغة الزائفة ستره. لذلك لا يحتاج المظلوم عند الله إلى أن يكون أفصح الناس؛ حسبه أن يكون صادقاً، لأن قضيته لا تُعرض على سمع مجرد قد تتدعه العبارة، بل على سمع محيط وبصر نافذ وعلم لا يغادر خافية.

﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهُاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾

ينتقل السياق من السماع إلى تفكيك الكلمة التي صنعت الأزمة. كان الظهار في الجاهلية لفظاً يلقبه الرجل على زوجته فيشبهها بأمه، فيجعلها معلقة بين الزوجية والفراق، لا هي زوجة تتمتع

بحقوقها، ولا هي مطلقةٌ تستطيع أن تستقبل حياةً جديدة. وهكذا تفعل التقاليد حين تنفصل عن هداية الله: تمنح القوي كلمات تتحول إلى قيود في حياة الضعيف، ثم تلبس تلك القيود ثوب الهيبة والعرف، حتى يخشى الناس مناقشتها كأنها حقائق أزلية. فجاء القرآن لا ليعالج حالة فردية وحدها، بل لهدم سلطة الوهم من أصلها: ﴿مَا هُنَّ أُمَمَاتٌ﴾. إن الكلمة لا تغير الحقيقة، والصيغة الموروثة لا تقلب طبائع الأشياء، والغضب لا يمنح الإنسان قدرةً على إعادة تسمية العلاقات كما يشاء.

هذه الآية درسٌ عظيم في سلطان اللغة وحدودها. للكلمات أثرٌ هائل، بها تُبنى العهود، وتنفذ العقود، وتثبت الحقوق، وتلتئم القلوب أو تنصدع؛ لكنها مع ذلك لا تخلق الحقائق من العدم، ولا تحيل الباطل حقاً مجرد أن المجتمع اعتاد قوله. يستطيع الإنسان أن يطلق على القسوة اسم الحزم، وعلى الجبن اسم الحكمة، وعلى التعصب اسم الوفاء، وعلى الاستبداد اسم الطاعة، غير أن تبديل الأسماء لا يبدل ماهية الأشياء في ميزان الله. وكم من ظلم طال بقاؤه لأن الناس لم يجرؤوا على نزع الاسم الجميل الذي يستتر وراءه! تأتي الآية فتعلم العقل المؤمن أن يسأل دائماً: ما حقيقة هذا الأمر بعيداً عن اللافطة المعلقة عليه؟ هل صار الوهم حقيقةً لأن الألسنة كررت؟ وهل يتحول الزور إلى نظام مشروع لأن أجيالاً تعاقبت عليه؟

ثم يقرر القرآن الحقيقة البسيطة التي طمسها الاصطلاح الجاهلي: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾. الأمومة ليست غضبة لغوية يصنعها لسان الرجل حين يشاء، بل حقيقة راسخة لها سببها ومقامها وحرمتها. وفي هذا رد للأسماء إلى معانيها، وللأشياء إلى طبائعها، وللإنسان إلى حدود سلطانه. إن جانباً كبيراً من الضلال يبدأ حين يتوهم المرء أن إرادته تمنحه سلطةً مطلقة على الحقيقة، فيقول للشيء: كن كذا، ثم يطالب العالم كله أن يصدق. أما الوحي فيرده إلى تواضع العبودية: لست خالق الحقائق، وما نطقت به في سورة الغضب لا يصير قدراً كونياً مجرد أنه خرج من فمك.

ولم يكتف القرآن بإبطال أثر العبارة، بل حكم عليها أخلاقياً: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾. إنه منكر، لأن الفطرة السليمة تستقبحه، وزور؛ لأنه يزور النسبة ويضع المرأة في موضع ليست فيه. والمنكر هنا ليس فعلاً باليد، وإنما هو قول؛ لتعلم النفس أن الجرائم لا تبدأ دائماً بحركة الجوارح، وأن اللسان قد ينشئ من الظلم ما تعجز عنه اليد. كلمة واحدة قد تحاصر إنساناً أعواماً، وقد تنتزع الأمان من قلبه، وقد تهدم صورة نفسه في عينيه، وقد تجعله يعيش تحت وطأة تعريف ظالم فرضه عليه آخر. ومن هنا كان تهذيب اللسان جزءاً من إقامة العدل، لا مجرد بابٍ من أبواب اللياقة.

ومع هذا الحكيم الصريح، لا تعلق الآية باب العودة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾. لم يقل إن القول يسير، ولم يجعل خطورته، ولم يحوله إلى زلةٍ بلا وزن؛ لكنه بعد أن سماه منكرًا وزورًا فتح للخطيئة باب العفو والمغفرة. تلك هي الرحمة التي لا تبطل العدل، والعدل الذي لا يقتل الرجاء. إن بعض الناس يظن أن الرحمة تقتضي تخفيف أسماء الأخطاء، فيرفض أن يسمى

الظلم ظلماتاً حتى لا يجرح الظالم، وبعضهم يظن أن العدل يقتضي أن يُحبس المخطئ إلى الأبد داخل خطئه؛ أما القرآن فيجمع الأمرين: يسمي المنكر منكراً والزور زوراً، ثم يدل صاحبه على طريق التطهر. فالتوبة لا تنبت في أرض التبرير، وإنما تبدأ حين يرى الإنسان فعلته كما هي، ثم لا يئأس من رحمة الله.

﴿وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

لا يترك الوحي الكلمة السيئة معلقة في الهواء، ولا يسمح لصاحبها أن يعود إلى حياته كأن شيئاً لم يقع. فهناك كفارة ترد إلى الكلمة وزنها، وتعلم الإنسان أن اللسان ليس لعبة بلا تبعات. إن من أخطر ما يصيب العلاقات أن يأمن المرء عاقبة كلماته؛ فيجرح حين يغضب، ثم يطالب المجروح أن ينسى حين يهدأ، ويهدم في لحظة ثم يتوقع أن يعود كل شيء كما كان بمجرد أن تبدل نبرته. لكن القرآن يربي الضمير على أن الرجوع إلى العلاقة يمر عبر تحمل مسؤولية ما قيل: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾. لا بد من وقفة بين الخطأ واستئناف الحياة، وقفة يصلح فيها الخلل، ويعترف فيها بأن الكلام ترك أثراً لا يجوز تجاوزه باستخفاف.

وأول الكفارة تحرير رقبة. يا لعظمة هذا الانتقال: كلمة ضيقت على امرأة حرة داخل بيتها، فيكون التكفير عنها تحرير إنسان من الرق. كأن الشريعة تصل بين صور الاستعباد كلها؛ فن استعمل سلطته اللفظية ليحبس إنساناً في وضع مهين، فعليه أن يفتح باب الحرية لإنسان محبوس. إن الجريمة كانت تضييقاً، والكفارة توسيع، وكانت امتحاناً لكرامة، والكفارة استرداداً لكرامة؛ وكانت استخداماً خاطئاً لقوة السيد في بيته، والكفارة تنازلاً عن سلطان السيد على مملوكه. وهكذا لا تكون الكفارة حركة شكلية، بل تربية مضادة للمعنى الذي أنتج الخطيئة. إن الله لا يريد فقط محو الأثر من صحيفة الحساب، بل يريد إعادة تشكيل النفس التي صدر عنها الفعل.

ثم يقول: ﴿ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ﴾، فسمي الحكم موعظة، مع أنه تكليف عملي وتبعة مادية. لأن الموعظة القرآنية ليست كلمات رخوة تقال ثم تنتهي، بل قد تكون نظاماً يلزم الجسد والمال والوقت حتى يتعلم القلب. وربما لا يتغير الإنسان بما يسمع من خطب ما دام خطؤه لا يكلفه شيئاً؛ فإذا حمل تبعته، وذاق ثقلها، وفهم أن لحظة انفلات في لسانه أوجبت عليه عملاً شاقاً، انطبعت الموعظة في أعماقه. ليست الغاية إذلال المخطئ؛ بل إيقاظه؛ وليست الكفارة ثمناً لشراء المغفرة، بل مدرسة يربي فيها اللسان على التؤدة، ويتعلم القلب أن كرامات الناس ليست مجالاً لعبث الغضب.

وتُحتم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. والخبرة علم نافذ يبلغ بواطن الأمور ودقائقها؛ فالله يعلم هل كانت الكفارة امتثالاً صادقاً أم التفافاً على الحكم، وهل عاد الرجل إلى زوجه بقلب أصلحه الندم أم بنفسٍ تنتظر فرصة جديدة للإيذاء. إن الشريعة تستطيع أن تضبط الظاهر، لكن استقامة الحياة لا تتم إلا حين يستيقظ الرقيب الباطن. فقد يؤدي الإنسان

الكفارة ولا يتحرر من الكبر الذي أنشأ الذنب، وقد يستوفي الحكم صورةً ويبقى جوهر الظلم حياً في نفسه؛ لذلك يتكرر في السورة إحاطة العلم الإلهي، لأن الأحكام لا تؤتي ثمرتها كاملة إلا إذا عبد الله بها في السر كما أطيع في العلن.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَنَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يتدرج الحكم بحسب الاستطاعة، فلا يسقط معنى المسؤولية، ولا يكلف الإنسان بما لا يملك. فمن لم يجد رقبةً يحررها انتقل إلى صيام شهرين متتابعين؛ رحلة طويلة يسترد فيها اللسان اتزانه عبر جوع الجسد وصبر الإرادة. لم تكن الخطيئة لحظة فقط، ولذلك لا يكون الإصلاح دائماً لحظة. شهران متتابعان يمران على الإنسان يوماً بعد يوم، يذكره كل فجر فيهما بأن كلمة عابرة قد تحتاج إلى زمن طويل حتى تظهر آثارها. ولعل في هذا ما يعلن أن بعض ما نهده في ثانية لا يبني في ثانية، وأن الاعتذار، على جلال قدره، قد يكون بداية الإصلاح لا نهايته؛ فالقلب المجروح يحتاج إلى زمن، والثقة المهاراة تحتاج إلى شواهد متتابعة، والنفس المنفلتة تحتاج إلى تدريب طويل حتى نتعلم ألا تجعل الغضب قائداً للسان.

والتتابع نفسه ذو دلالة؛ لأن النفس قد تتدم لحظة ثم تفتت، وقد تشتعل فيها عزيمة الإصلاح يوماً ثم تعود إلى عاداتها. فجاء التكليف ممتداً متصلاً، كأنما يبني داخلها معنى الثبات. إن الله لا يريد انفعالاً أخلاقياً عابراً، بل يريد تحولاً؛ والتحول لا تصنعه ومضة الدم وحدها، وإنما تصنعه المداومة التي تنقل المعنى من سطح الشعور إلى عمق الخلق. الصيام هنا ليس إمساكاً عن الطعام فحسب، بل إعادة تربية للقوة: من كان عاجزاً عن كف كلمة في لحظة غضب، يتعلم أن يكف شهوته أياماً متتابعة؛ ومن استعمل سلطانه ليؤذي، يدخل مدرسة العبودية حيث يشعر بضعفه وافتقاره وحاجته إلى ربه.

فإن لم يستطع الصيام، انتقل الحكم إلى إطعام ستين مسكيناً. وهنا يخرج أثر التوبة من دائرة النفس والبيت إلى المجتمع؛ تتحول الزلة الخاصة إلى شيع يصل إلى بطون المحتاجين. وما أعجب المنهج الرباني حين يجعل من موضع الانكسار منبعاً للخير! لا يبارك الخطيئة، لكنه لا يدع التوبة منها عقيمة؛ بل يجعلها تطلق في الأرض حرية، أو تبني في النفس إرادة، أو تطعم جائعاً. وهكذا يستطيع الإنسان، إذا صدق في الرجوع، أن يجعل من الندبة نافذة للنور، ومن موضع سقوطه سلماً إلى نضج لم يكن ليبلغه من قبل. ليست الفضيلة أن تكون بلا ماضٍ من الخطأ؛ فذلك ليس شأن البشر، وإنما الفضيلة أن لا تسمح للخطأ بأن يبقى خاتمتك، وأن تخرج من التوبة أرحم قلباً وأصدق لساناً وأشد إحساساً بالآلام الآخرين.

ثم ترتفع الآيات بالحكم من إطار الأسرة إلى أصل العقيدة: ﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. كان الإيمان ليس فكرة معلقة فوق الحياة، ولا تصديقاً ذهنياً منفصلاً عن تفاصيل البيت، بل هو أن يدخل أمر الله إلى الكلمات التي تبادلها مع أقرب الناس إلينا، وإلى لحظات الغضب التي لا يرانا فيها الجمهور، وإلى الحقوق التي قد نستطيع الإفلات منها بحكم القوة. إن صدق

الإيمان لا يظهر فقط حين يقف المرء في محرابه، بل حين يغضب ممن يعيش معه ثم يتذكر أن بينه وبين التجاوز حدوداً لله. وقد يكون امتحان الإيمان في البيت أدق من امتحانه في الميدان العام؛ ففي المجال العام تضبطنا السمعة، أما خلف الأبواب فلا يبقى إلا حقيقة الخلق ومراقبة الله.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ إنها ليست اقتراحات أخلاقية، ولا نصائح تقبل عند صفاء المزاج وتترك عند ثورته، بل حدود تنتهي عندها سلطة الإنسان ويبدأ فيها حق الله. والحدود في جوهرها حماية قبل أن تكون منعاً؛ فهي تحمي الضعيف من انفلات القوي، وتحمي الأسرة من فوضى الألفاظ، وتحمي الإنسان من نفسه حين تتضخم حتى تظن أن لها أن تقول وتفعل ما تشاء. وما أجمل أن يرى المؤمن حدود الله لا بوصفها جدراناً تحاصر حريته، بل بوصفها شواطئ تمنع طوفان الهوى من إغراق حياته؛ فالنهر لا يصير نهراً إلا بضفتين، والحرية لا تصير إنسانية إلا بحدود تمنعها من التحول إلى عدوان.

وهكذا تفتتح سورة المجادلة طريقها من أضيق موضع في الظاهر: كلمة قيلت داخل بيت. لكنها تكشف منذ البدء أن البيوت ليست خارج سلطان الله، وأن ما يسميه الناس «شأننا خاصاً» لا يصبح مباحاً للظلم، وأن قرب الإنسان منك لا يمنحك حق إيذاؤه، بل يزيد حقه عليك. ثم تضع السورة في القلب قاعدتها الكبرى التي ستظل تتردد في آيات النجوى والمجالس والمنافقين: الله يسمع. يسمع ما يقال في ضوء النهار، وما يهمس به وراء الأبواب، وما يدور بين اثنين، وما تتواطأ عليه جماعة، وما يشكو به قلب لا يعرف كيف يرتب عبارته. ومن استقر في قلبه أن الله يسمع، لم يعد اللسان عنده جارحةً مهملة، ولم تعد الخلوات أرضاً بلا رقيب، ولم تعد المظالم الصغيرة صغيرة؛ لأن كل كلمة تقع تحت سماع لا يغيب، وكل حركة تجري أمام بصر لا ينام.

من حدود البيت إلى حدود الرسالة: حين تنكسر المكابرة أمام الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

بعد أن قالت الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، جاءت صورة الذين يقفون في الجهة الأخرى من هذه الحدود: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. إن بين «الحدود» و«المحاددة» صلة دقيقة؛ فالله يضع للإنسان حداً يحفظ به حقه وحقوق الآخرين، أما المتكبر فيأبى أن يقف حيث أمره الله، ويختار لنفسه حداً مقابلاً، كأنه يجعل ذاته في جهة وأمر الله في جهة، ثم يمضي في خصومة يتوهم أنه يستطيع الانتصار فيها. والمحاددة ليست مجرد خطأ يقع فيه المرء ثم يندم، بل موقف من الحق: أن يعرفه ثم يجعل نفسه في حدٍّ مضاد له، وأن يرى النور ثم يحتمي بالظلمة لأن اعترافه بالنور يكلفه أن يتنازل عن كبريائه، وأن يسمع أمر الله ثم يتعامل معه لا بوصفه هدايةً يجب اتباعها، بل بوصفه عائقاً ينبغي الالتفاف عليه.

ومن هنا يظهر الفرق بين العاصي والمُحَادِّ؛ فقد يعصي المؤمن تحت ضغط شهوة ثم يبقى في قلبه توقير الأمر وحزن المخالفة، أما المُحَادِّ فيحوّل نزوة النفس إلى راية، ويجعل من رفضه للحق هوية ومشروعاً، ثم يبحث لعصيانه عن فلسفة تزينه. الأول يقع وراء الحدود وهو يشعر بالغيرة ويريد الرجوع، والثاني يقف قبالتها متحدياً، ويستمد إحساسه بالقوة من أنه لا يخني. ولذلك كان خطر الاستكبار أشد من خطر الضعف؛ لأن الضعيف قد يوقظه الألم، أما المستكبر فيحوّل كل إنذارٍ إلى سببٍ لمزيد من العناد، ويظن أن الاعتراف خطيئة، وأن التراجع هزيمة، وأن الخضوع للحق انتقاص من ذاته، مع أن كرامة الإنسان كلها تبدأ حين يتحرر من عبودية ذاته ويقف عبداً لله.

لكن الآية تحسم مصير هذه المحادّة: ﴿كُتِبُوا لَكُمْ كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. والكبت سقوطٌ مع إذلالٍ وغيظ؛ انكسار لا يترك لصاحبه نشوة البطولة التي تخيلها وهو يقاوم الحق. لقد تكرر المشهد في التاريخ بأسماءٍ مختلفة: قوةٌ تستعلي، وسلطانٌ ينتفخ، وأصواتٌ تسخر من الوحي، وأصحابٌ حقّ يبدون قلةً ضعفاء، ثم تمر الأيام فينكشف أن ما بدا راسخاً لم يكن إلا غباراً كثيفاً، وأن ما حسب ضعفاً كان متصلاً بقوة لا تزول. إن التاريخ في المنظور القرآني ليس حشداً من الوقائع الميتة، بل ميدانٌ تكرر فيه السنن؛ تبدل الوجوه وتبقى طبائع النفوس، وتغيّر الأدوات ويبقى جوهر الاستكبار واحداً، وتتنوع شعارات الباطل لكنه ينتهي كل مرة إلى الكبت ذاته حين يبلغ أجمله.

ومع ذلك لم يقع كبتهم لأن الحجة غابت عنهم أو لأن الطريق كان ملتسماً: ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِ بَيِّنَاتٍ﴾. فالبيان سبق العقوبة، والنور تقدم الحساب، والحجة قامت قبل المؤاخذه. والآيات البينات لا تترك القلب على الإيمان، لكنها تنزع من الكفر عذره؛ تجعل الطريق واضحاً، ثم تترك الإنسان أمام مسؤولية اختياره. وهنا تتجلى عدالة الله: لا يعاقب على غموض، ولا يؤاخذ على طريقٍ لم يدل عليه، ولا يطالب النفوس بأن تهتدي في أرضٍ بلا علامات؛ بل يرسل الآيات، ويوقظ الفطرة، ويقيم الشواهد في الكون والتاريخ والأنفس، ثم يكون الامتحان: هل يتبع الإنسان ما عرف، أم يوظف عقله في الهرب مما عرف؟

وتُختم الآية بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾؛ لأن جريمة المحادّة ليست ضلالاً فكرياً بارداً فحسب، بل استعلاءً على الحق، والاستهانة بما عظمه الله، ومحاولة لإذلال أهل الإيمان وصيدهم عن طريقه. فجاء الجزاء من جنس الباطن الذي حرّك الجريمة: من طلب العزة في مواجهة الله انتهى إلى الهوان، ومن جعل كبرياءه حجاباً عن السجود كسر الحجاب وبقي الذل. وليس أشد على المستكبر من أن تتكشف له ضالة القوة التي عبدها في نفسه، وأن يرى أن كل ما تفاخر به لم يكن ملكاً حقيقياً، بل عاريةً استردها الله في لحظة.

اليوم الذي تستيقظ فيه الأعمال

﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ جَمِيعاً فِينَهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

تنتقل السورة من هزيمة المحادين في حركة التاريخ إلى هزيمتهم الكبرى يوم البعث: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾. لا يبقى أحد خلف القبور، ولا تمنح العزلة إنساناً مهرباً، ولا يذوب الفرد داخل الجمهور ليضيع حسابه بين الملايين؛ يبعثون جميعاً، ولكن كل واحد يأتي حاملاً قصته الخاصة، وعمله الخاص، وسره الذي ظن أنه مات بموته. وفي الدنيا يراهن الإنسان على النسيان؛ تمر الجريمة، ويغيب الشهود، وتغير الأمكنة، ويشيخ من عرفوا الحكاية، ثم تموت الأجساد التي حملت الذكريات، فيظن الفاعل أن الزمن قد ابتلع ما صنع. غير أن القرآن يهدم هذا الوهم بكلمات قليلة: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾.

ياله من مشهد ههنا الضمير! لقد نسوا، لا لأن الأعمال لم تقع، بل لأن كثرة الأيام غطتها، ولأن النفس بارعة في طمس ما يزعج صورتها عن ذاتها. قد ينسى الإنسان كلمة قالها منذ عشرين عاماً، بينما بقيت تلك الكلمة جرحاً مفتوحاً في قلب من سمعها. وقد ينسى نظرة احتقار ألقاها عابراً، لكنها علقت في روح ضعيف طويلاً. وقد ينسى وعداً قطعه ثم أخلفه، أو حقاً أخره، أو سراً أفشاه، أو مجلساً أذى فيه غائباً، أو لحظة فرج فيها كربة إنسان ولم يلتفت إليها بعد ذلك. نحن ننسى لأن ذاكرتنا محدودة، ولأننا لا نرى كل ما ترتب على أفعالنا؛ أما الله فيحصي الفعل وأثره، والقول وامتداده، والنية التي دفعته، والفرصة التي أتيحت لنا، والعذر الذي كان عندنا أو لم يكن.

والإحصاء الإلهي ليس عدداً جامداً للأعمال منفصلةً عن سياقها، بل علمٌ كامل لا يظلم صاحبه شيئاً. يعلم الله دمة التائب التي تحت أثر الخطيئة، ويعلم المجاهدة الخفية التي لم يرها أحد، ويعلم أن كلمة الخير خرجت من قلبٍ مخلص أو من نفسٍ تطلب مكاناً في عيون الناس، ويعلم ما استطاعه الإنسان وما عجز عنه، وما قاومه وما استسلم له. ولذلك كان الحساب الإلهي مخيفاً وعادلاً في آنٍ واحد؛ مخيفاً لأنه لا ينسى، ومطمئناً لأنه لا يشتبه عليه شيء. قد تضيع حسناتك عند البشر لأنهم لم يروها، وقد نساء قراءة نيتك، وقد ينسب جهدك إلى غيرك، وقد تخرج من الدنيا وفي صدور الناس عنك حكاية ليست حكايتك؛ لكن شيئاً من ذلك لا يغير حقيقتك في علم الله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

إن الشهادة الإلهية تحرر المؤمن من مرضين متقابلين: من الجرأة على الخطيئة حين يغيب الناس، ومن الارتهان لرضا الناس حين يعمل الخير. فإذا أيقن أن الله شهيد، لم يحتاج إلى ظلامٍ أشد ليستر المعصية؛ لأن الظلام نفسه مشهود، ولم يحتاج إلى تصفيقٍ يثبت قيمة الطاعة؛ لأن الطاعة نفسها معلومة. وما أكثر ما نتعب الأرواح حين تعيش تحت محكمة البشر؛ تحسن من أجل أن ترى، وتجتمل من أجل أن تمدح، وتخاف أن يسيء أحد فهمها، ثم تبدد طاقتها في مطاردة صورها داخل عيون الآخرين. أما من استقر في قلبه أن الله شهيد، فإنه يردُّ قلبه إلى مركزه: يكفيه أن يكون صادقاً عند من لا تخفى عليه السرائر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

من المشهد العام: ﴿يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾، تدخل بنا السورة إلى مشهد يكاد لا يرى: ثلاثة يتقاربون، تنخفض أصواتهم، تتلاصق رؤوسهم، ويظنون أن سرهم قد ضاق حتى لم يعد في المكان لغيرهم موضع. لكن العلم الإلهي يحيط بنجواهم: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. وهذه معية علم وإحاطة وسمع وبصر، تليق بجلال الله سبحانه، لا يحيط به مكان ولا يشبه خلقه؛ فهو سبحانه فوق خلقه مستوٍ على عرشه كما يليق به، ومعهم بعلمه المحيط الذي لا تحجبه المسافات ولا تستره الجدران. ليست هناك زاوية في الكون تقع خارج علمه، ولا همسة تحتاج كي تبلغ إليه أن تقطع مسافة، فهو العليم بها قبل أن تتحرك الشفاه.

ولم تذكر الآية الواحد والاثنين ابتداءً، بل بدأت بالثلاثة؛ لأن النجوى غالباً ما تكون جماعة تفصل بسرّها عن غيرها، وتكون دائرة مغلقة قد يختلط فيها تبادل الرأي بصناعة الإثم. ثم ذكرت الخمسة، ثم كسرت حدود العدد كله: ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ﴾. فلا خصوصية لعدد، ولا ثغرة في الحساب، ولا جماعة تكبر حتى تختلط على العلم الإلهي أصواتها. ولو تناجت جموع الأرض كلها في اللحظة نفسها، كل بلغته وحاجته وسره، لسمع الله كل نجوى مفردة لا يشغله حديث عن حديث، ولا يلتبس عليه صوت بصوت.

وهذه الآية تصنع في النفس شعورين عظيمين: الهيبة والأنس. الهيبة لمن أراد بالنجوى سرّاً؛ فلا يظن أن انخفاض الصوت يخفّضه عن سمع الله، ولا أن إحكام الخطة يجعلها غائبة عن علمه. والأنس لمن خلا به الحزن، أو اجتمع بأخيه على ذكر الله، أو تشاور معه في خير لا يعلم به أحد؛ فهو ليس وحيداً، والعمل الذي غاب عن أعين الخلق لم يغيب عن رب الخلق. إن المؤمن حين يقرأ: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يشعر أن كل عزلة يمكن أن تكون معمورة بالله، وأن الوحشة لا تأتي من خلو المكان من البشر، بل من خلو القلب من استحضار معيته.

لكن الآية لا تتقف عند العلم الحاضر، بل تصل النجوى بيوم القيامة: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾. ما قيل همساً سيعود يوماً نبأ معلناً، وما أراد أصحابه دفنه بين الجدران سيقف أمامهم في ساحة الحساب. والإنباء أبغ من مجرد الإخبار؛ إذ يعرض العمل واضحاً بتفاصيله ودلالاته وآثاره، فلا يستطيع صاحبه أن يختبئ وراء غموض العبارة أو أن يعيد كتابة القصة لمصلحته. وفي الدنيا يملك الناس فرصة التحكم في الرواية: يحذفون منها ما يفضحهم، ويبرزون ما يزينهم، ويضعون لأنفسهم الدوافع النبيلة بعد أن تكون الأهواء هي التي قادتهم؛ أما في الآخرة فالخبر هو العليم بكل شيء، فلا تبقى للزيف مساحة يصنع فيها نسخته البديلة من الحقيقة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ﴾

ها هنا تتحول النجوى من صورة محايدة إلى أداة للفساد. لقد نهوا، وعرفوا أن هذا المسلك يورث الريبة ويؤذي المؤمنين، ثم عادوا إليه، فلمشكلة ليست أنهم جهلوا، بل أنهم استمروا المخالفة. وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ﴾ تصوير للنفس التي لا تجعل النهي نهاية للفعل، بل استراحة قصيرة تعود بعدها إلى عاداتها، كأنها تختبر الحدود: هل يقع العقاب فوراً؟ هل يمكن أن نكرر الفعل ولا يحدث شيء؟ ومن هنا يبدأ تبدل الضمير، لا حين يقع الإنسان في الذنب للمرة الأولى، بل حين يداوم عليه حتى يفقد استقباحه، ويصبح النهي عنده صوتاً خارجياً لا يحدث في داخله رجة.

وقد كشفت الآية مادة نجواهم: ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾. فالإثم فساد في المقصد والعمل، والعدوان تجاوز إلى حقوق الآخرين، ومعصية الرسول خروج على قيادة الوحي ومنهجه. وهكذا تبدأ المؤامرة من الداخل ثم تمتد إلى الخارج: قلب فاسد، وفعل معتد، وموقف متمرد على الرسالة. وما تزال النجوى الآتية في كل عصر تسلك هذا الطريق نفسه؛ تبدأ بتبادل الظنون، ثم تتحول الظنون إلى أحكام، ثم تتحول الأحكام إلى خطط للإيذاء، ثم يبحث المجتمعون عن تبرير ديني أو أخلاقي يكسون به عدوانهم. وما أسهل أن يظن الإنسان نفسه مدافعاً عن الحق وهو في الحقيقة يدافع عن جرح كبريائه، وأن يزعم أنه يحمي الجماعة وهو يشفي حقه في فرد، وأن يسمي التشهير نصيحة، والغيبة تقييماً، والتأمر حكمة؛ لكن الله يعلم المادة الحقيقية التي صنعت منها النجوى.

ثم ينكشف نفاقهم في التحية: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. اللسان نفسه الذي يتناجى في الخفاء بالإثم يأتي في العلن ملفوفاً بعبارة مؤهمة، تحمل في ظاهرها التحية وتخفي في باطنها الأذى. وهذه طبيعة النفس المنافقة: لا تملك شجاعة العداوة الصريحة ولا صفاء المودة الصادقة، فتعيش في المنطقة العفنة بين الوجهين؛ تقول ما تستطيع إنكاره، وتقصد ما لا تريد إظهاره، وتجعل اللغة كميناً. ومن أفسد ما يصيب العلاقات أن تتحول الكلمات من جسور للمعنى إلى أقنعة لإخفائه، فلا يعود السامع يثق بالتحية ولا بالنساء ولا بالسؤال؛ لأن وراء كل عبارة احتمال خنجر.

ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾. وهذه جرأة تنشأ من سوء فهم الإمهال؛ إذ يتوهمون أن تأخر العقوبة دليل على غيابها، وأن كون السماء لم ترسل صاعقة بعد كلماتهم يعني أن الله لم يسمع، أو أن ما فعلوه هيّن. وهي غفلة تتكرر في حياة كل عاصٍ يطول عليه السترة؛ فقد يظن أن النجاة المتكررة تصديق له، وأن اتساع الرزق رضا، وأن عدم انكشاف السر براءة، مع أن الإمهال قد يكون فرصة للتوبة، وقد يكون استدراجاً يزداد به القلب قسوة حتى يلتقي

مصيره. ليست العبرة بأن العقوبة لم تقع الآن، بل بأن العمل قد كُتب، وأن الأجل الذي حدده الله لم يأت بعد.

ولهذا جاء الجواب مرعباً في إيجازه: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾. أي تكفيهم، فلا يحتاجون إلى العلامة العاجلة التي اقترحوها استهزاءً؛ إن أمامهم من العذاب ما يغني عن كل عقوبة توهموا غيابها. ﴿يَصْلُونَهَا فَيَنَسُّ الْمَصِيرُ﴾؛ فالمصير ليس لحظة عابرة، بل نهاية الطريق الذي اختاروه خطوة خطوة: نجوى آثمّة، وعدوان، ومعصية، وكلمة مسمومة، واعتارار بالإمهال، حتى تبلغ الروح الموضوع الذي كانت تسير إليه وهي تظن أنها واقفة.

كيف تتحول الخلوة إلى عبادة؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

لا يكتفي القرآن بتحريم النجوى الفاسدة، بل ينقل المؤمنين إلى البديل الطاهر: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. فهو لا يحارب السر من حيث هو سر، ولا يمنع القرب الإنساني الذي يجعل اثنين يتشاوران بعيداً عن الضجيج؛ إنما يطهر المادة التي يحملها السر. يمكن للنجوى أن تكون حفرةً يُدفن فيها عرض إنسان، ويمكنها أن تكون محرّاباً خفياً يولد فيه مشروع خير. يمكن لاثنتين أن يجتمعا ليفسدا قلب أحدهما على أخيه، ويمكنهما أن يجتمعا ليسترا فقيراً، أو يصلحا بين متخاصمين، أو ينقذا مظلوماً، أو يتعاونوا على مقاومة شهوة، أو يذكر كل منهما الآخر بالله. الأبواب المغلقة لا تكون شريرة بذاتها؛ وإنما يسأل القرآن عما يجري خلفها.

وجمع الأمر بين البر والتقوى، لأن البر هو اتساع الخير في معاملة الخلق، والتقوى هي حراسة القلب في علاقته بالخالق. قد يتحدث الناس عن عملٍ نافع، لكنهم يبنونه على رياءٍ أو مصلحة خفية؛ فيكون ظاهره براً وباطنه محروماً من التقوى. وقد يزعمون أنهم يغارون على الدين، ثم يعتدون على الأعراض والحقوق؛ فيتحدثون باسم التقوى وهم بعيدون عن البر. أما النجوى المؤمنة فتجمع صفاء المقصد وصلاح الأثر، فلا نتقرب إلى الله بظلم عباده، ولا نخدم الناس بقلبٍ منقطع عن الله.

ثم تعيدهم الآية إلى الحشر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. كأن أنفع ما يطهر مجالس السر أن يدخلها مشهد الآخرة. قبل أن تقول عن غائبٍ ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه، تذكر أنك ستقف معه بين يدي الله. قبل أن تصدر حكماً يدمر سمعته، تذكر أنك ستسأل عن الدليل والقصد والأثر. قبل أن تبسم لحظةً تؤذي بها أحداً، تذكر أن الطريق كله ينتهي إلى ساحة لا تنفع فيها الابتسامات المتواطئة. إن استحضار الحشر لا يعزل المؤمن عن الحياة، بل يهذب مشاركتها فيها؛ يجعله يعيش اللحظة وهو يرى نهايتها، ويتكلم الكلمة وهو يسمع صداها يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

تكشف هذه الآية غاية خفية من غايات النجوى الآتية: ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. قد لا تستطيع الجماعة المتناجية أن تفعل شيئاً حقيقياً، لكن مشهدها وحده يرسل القلق في نفس من استبعد من دائرتها؛ لعلهم يتحدثون عني، لعلهم يديرون أمراً، لعل وراء الهمس خطراً لا أعرفه. والشیطان يعرف أن الحزن قد يعطل الإنسان قبل أن يقع عليه الضرر؛ يجعله يخوض معارك متخيلة، ويستهلك طاقته في قراءة الإشارات، ويحول نظرة عابرة إلى اتهام، وهمسة بعيدة إلى مؤامرة. وربما لم يحتج أعداؤه إلى أن يصيبوه بشيء؛ لأن ظنونه قامت بالمهمة عنهم.

ولذلك لم تقل الآية إن غاية الشيطان دائماً أن يهلك المؤمنين مباشرة، بل قالت: ﴿لِيَحْزَنَ﴾. فالحزن الذي يستقر بلا مقاومة قد يكون باباً إلى الوهن وسوء الظن والعزلة وفقدان الثقة بالله. إن الشيطان لا يملك أن يخلق الوقائع، لكنه يحاول أن يلوّن إدراكها، يضخم الاحتمال، ويكرر الصورة المخيفة، ويجعل المستقبل كغمة سوداء، ثم يدفع القلب إلى أن يعيش المصيبة قبل وقوعها مراراً. وهو لا يحتاج بعد ذلك إلى أن تقع؛ فقد أخذ من الروح أمنها، ومن الحاضر جماله، ومن العبادة خشوعها.

لكن الآية تقطع الطريق على هذا الإرهاب النفسي: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ليس معنى ذلك أن الأسباب لا تعمل أو أن الأعداء لا يملكون أدوات للأذى، بل معناه أن كل قوة في الكون محكومة بسلطان الله، وأن الأسباب لا تستقل بالفعل، وأن ما لم يأذن الله بوقوعه لن تفتحه حيلة، وما أذن به فلن يخرج عن حكمته ورحمته وإن خفي وجههما في اللحظة الأولى. هذه العقيدة لا تصنع إنساناً غافلاً لا يحذر، بل تصنع إنساناً يحذر من غير هلع، ويأخذ بالأسباب من غير عبادة لها، ويرى الخطر بحجمه الحقيقي لا بالجم الذي ينفخه الشيطان في خياله.

ثم يأتي العلاج في جملة جامعة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. لم يقل: لا تخزنوا لأن أعداءكم ضعفاء، فقد يكونون أقوياء؛ ولا لأن خططهم فاشلة دائماً، فقد يمكن لهم حيناً؛ وإنما رد القلب إلى الحقيقة التي لا تبدل: الله. فالتوكل ليس ثقة بأن الطريق سيأتي دائماً وفق رغبتك، بل ثقة بأنك لن تخرج في أي منعطف عن تدير ربك. وهو ليس وعداً بالألمس الأمل، بل يقين بأن الألم نفسه لن يكون سائبة بلا معنى ولا حد. وحين يتوكل المؤمن، لا يلزم أن تحتفي الأصوات المتناجية حوله، لكن صوته يخفّض داخل قلبه؛ لأنه يسمع فوقها قول الله: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

آداب المجالس: حين يُقاس الإيمان بمقدار ما تفسحه لغيرك

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

بعد أن طهرت السورة بنجوى القلوب، انتقلت إلى هيئة الأجساد في المجالس؛ لأن الوحي لا يفصل بين باطن الإنسان وظاهره، ولا يرضى أن يكون القلب عامراً بادعاء الإيمان بينما يضيق الجسد أن يفسح موضعاً لأخيه. إن السلوك الصغير قد يفسح معنى كبيراً مستتراً في النفس، وقد تكون حركة المرء في مجلسٍ أصدق في الكشف عن أخلاقه من خطبة طويلة يلقيها في التواضع. كيف يجلس؟ كيف يستقبل القادم؟ هل يرى مكانه حقاً شخصياً لا يُمس، أم يراه مساحةً يمكن أن يتقاسمها مع الآخرين؟ هل تضيق نفسه إذا طُلب إليه أن يتحرك قليلاً، كأن كل انتقال عن موضعه انتقاصٌ من قدره؟ هكذا ينزل القرآن إلى التفصيل الذي قد يراه الناس هيناً، فيجعل منه نافذةً تطل على حقيقة الإيمان.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾. لم يقل: إذا كان القادم عظيماً، أو غنياً، أو صاحب منزلة عندكم؛ بل أطلق الأمر، ليكون الإفراح خلقاً لا صفقة اجتماعية. فالإنسان بطبعه يفسح لمن يرجو منه نفعاً، ويقوم لمن يخشى سلطانه، ويتسم لمن يملك أن يرفعه في أعين الناس؛ أما الامتحان الحقيقي فهو أن تفسح لمن لا يملك أن يكافئك، وأن تشعر أن للإنسان حقاً في الكرامة لمجرد إنسانيته وإيمانه، لا بمقدار ما يحمله من ألقابٍ ومصالح. إن المجالس مرآة دقيقة لطبقات المجتمع الخفية؛ فيها يظهر من يظن أن قربته من الصدارة حق أبدي، ومن يعامل المتأخرين كأنهم زائدون عن المشهد، ومن يجعل قرب الأجساد وبعدها ترجمةً لقرب الأشخاص وبعدهم من قلبه.

والتفسح أوسع من أن يكون مجرد حركة مكانية؛ إنه منهجٌ في الروح. كم من إنسان أفسح بجسده ولم يفسح بقلبه، جلس القادم إلى جواره وبقي غريباً تحت برودة نظراته! وكم من مجلسٍ اتسعت مقاعده وضائق صدوره بالاختلاف، فلا مكان فيه لفكرة جديدة، ولا لسؤال حائر، ولا لصوتٍ لم يألفه المتقدمون! إن التفسح الذي يريده الوحي يبدأ من المقعد، لكنه يمتد إلى الاعتراف بحق الآخرين في الحضور والكلام والتعلم والمشاركة. أن تفسح يعني أن تتنازل عن وهم أنك وحدك مركز الدائرة، وأن تدرك أن العالم لا يضيق حين يدخل إليه آخرون، بل يزداد ثراءً واتساعاً.

وقد جاء الجزء من جنس العمل، لكنه أرحب منه بما لا يُقاس: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. حركة يسيرة منك، وفسحة تأتيك من الله لا تحدد الآية مجالها؛ ليشمل الوعد فسحة الصدر، وفسحة الرزق، وفسحة القبر، وفسحة الطريق، وفسحة الرحمة، وكل موضع يضيق فيه الإنسان ويحتاج إلى فتح الله. ما أعجب التجارة مع الكريم! ترحز جسدك قليلاً لأخيك، فيجعل الله لك في عنايته فضاءً تكسر أنانية النفس في لحظة، فيفتح لك من سعة الروح ما لا تصنعه كنوز الأرض. إن الجزء الإلهي لا يعيد العمل بحجمه المحدود، بل يأخذ بذرة الخلق الصغيرة فينبتها شجرةً تظل حياة صاحبها.

وفي هذه الجملة دواءٌ عميق لخوف الإنسان من أن يفقد مكانه إذا أفسح لغيره. كثير من الناس يضيقون بالآخرين لأنهم يتوهمون أن الفرص محدودة، وأن رفعة غيرهم خصم من رفعتهم،

وأن اقتراب أحد من النور يعني ابتعادهم عنه. لذلك يحتكرون المجالس، ويحبسون المعرفة، ويغلقون الأبواب، ويقاومون كل وجه جديد؛ كأن أرزاق المكنة موزعة في وعاء ضيق، إذا أخذ منه الآخرون لم يبق لهم شيء. فيقول الله: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لا نخش أن تضيق حين توسع على غيرك، فإن خزائن الفسحة ليست في يد المجلس ولا في يد الناس، بل في يد الله.

ثم يأتي الأمر الثاني: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا﴾؛ أي إذا دُعيت إلى النهوض لمصلحة معتبرة فانهبوا، ولا تجعلوا طول المكث نوعاً من التمسك بالمكان أو التثاقل عن التكليف. فلأدب ليس أن تعرف كيف تجلس فحسب، بل أن تعرف متى تقوم. وقد تكون النفس مستعدة لأن تأتي إلى مواطن الواجهة، لكنها ثقيلة حين تدعى إلى مواطن البذل؛ تحب قربها من مجالس العلم والفضل إذا منحها ذلك صورة جميلة، لكنها إذا قيل لها: انهضي إلى عمل، أو افسحي الطريق لغيرك، أو اتركي موضعاً اعتدته، شعرت أن كرامتها قد مُست. فجاء الأمر حاسماً: ﴿فَانْشُرُوا﴾. الإيمان حركة استجابة، لا إقامة دائمة في المواضع المريحة.

والنشور هنا ارتفاع ونهوض، يعقبه وعد بالرفعة الحقيقية: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. من قام حين أمر، رفعه الله؛ ومن لم يتشبث بالمكان، منحه الله مكانة؛ ومن تواضع في مجلس أرضي، هيا الله له درجات لا تصنعها المقاعد. إن الناس يطلبون الرفعة غالباً بالبقاء في الصفوف الأولى، وبإظهار أسمائهم، وبالاتقارب من أصحاب النفوذ، وبحراسة المواقع من القادمين؛ لكن القرآن يقلب هذا الميزان: الرفعة لا يصنعها موضع جسدك بين الناس، بل يصنعها صدق الإيمان ونور العلم واستجابة القلب لله.

وحص الله أهل العلم بالدرجات، لا لأن العلم شارة امتياز يتكبر بها صاحبها، بل لأنه حاملة من النور والمسؤولية. العلم الذي يرفع هو العلم الذي يقود إلى الله، ويجعل صاحبه أشد خشية، وأوسع صدرًا، وأرحم بالجاهل، وأبعد عن عبادة نفسه. أما العلم الذي يورث الاستعلاء، ويجعل صاحبه يحتقر من لم يتعلم، ويحوّله إلى حارس لباب الحقيقة يمنع الناس من الدخول، فقد يحمل صور العلم وألفاظه، لكنه محروم من روحه الرافعة. ولذلك قرنت الآية العلم بالإيمان؛ حتى لا تتحول المعرفة إلى قوة عمياء، وحتى يكون العقل منيرًا بقيمة العبودية لا مفتونًا بذاته.

والرفعة هنا ﴿دَرَجَاتٍ﴾، لأن الإيمان والعلم ليسا سطحًا واحدًا يقف عليه الجميع، بل طريق متفاوت المراتب، يرتفع فيه الإنسان بمقدار صدقه وعمله وخشيته وبذله. وقد يعرف اثنان المعلومة نفسها، لكنها تكون عند أحدهما حجةً يترن بها، وعند الآخر نورًا يتغير به. وقد يحفظ المرء أبواباً من العلم، ثم لا يفسح في مجلسٍ لتعلم صغير، فيشهد سلوكه أن ما حمله لسانه لم ينزل بعد إلى قلبه. لهذا خُتمت الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فاختبر الإلهية تنفذ وراء الهيئة: تعلم من تحرك إخلاصًا، ومن تحرك رياءً، ومن أفسح المكان وقلبه يضيق، ومن قام بجسده وظلت نفسه جالسةً على عرش الكبير.

إن سورة المجادلة التي بدأت بامرأة تبحث عن موضع لصوتها في فضاء المجتمع، تأمر المؤمنين هنا أن يصنعوا مواضع للآخرين في مجالسهم. وكأنها تربط بين العدل الكبير والأدب الصغير: المجتمع الذي لا يفسح في مقعد قد لا يفسح في حق، والذي يستثقل حضور الضعفاء في مجالسه قد يستثقل سماع شكواهم، والذي يحتكر المكان قد يحتكر الكلام والقرار والكرامة. يبدأ الظلم أحياناً من ضيق خفي في الصدر، ثم يتضخم حتى يصير نظاماً يمنع الناس حقوقهم؛ ويبدأ العدل من حركة يسيرة: أن ترحح ذاتك قليلاً ليظهر في العالم مكان لغيرك.

صدق القرب من الرسول ﷺ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

تنقل السورة من النجوى العامة إلى مناجاة الرسول ﷺ، فتضع أمام اللقاء الخاص تكليفاً يكشف صدق الرغبة فيه: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾. لقد كان في الناس من يكثر الانفراد بالنبي ﷺ، وربما حمله حب الظهور أو التوسع في السؤال على أن يأخذ من وقته الذي تتعلق به مصالح أمة، فجاءت الصدقة حاجزاً تربوياً يميز الحاجة الصادقة من الرغبة العابرة، ويعلم الناس أن وقت الرسالة ليس فراغاً مباحاً لكل من أراد أن يشعر بقربه الخاص.

إن الإنسان قد يرغب في القرب من العظماء لا ليتعلم منهم، بل ليضيف قريتهم إلى صورته عن نفسه. يريد مجلساً خاصاً، وحديثاً لا يشاركه فيه الآخرون، ثم يعود إلى الناس يحمل إشارة خفية إلى مكانته: لقد ناجيت، ولقد خصصت، ولقد كنت قريباً. فجاءت الصدقة لتطهر هذا القرب من الاستعراض؛ فمن كان محتاجاً حقاً إلى المناجاة لم تثقله التضحية، ومن كان يطلب لذة التميز أعاد التفكير حين صار لطلبه ثمن يدفعه للفقراء. وهكذا يكشف البذل حقيقة الدوافع التي تتخفي داخل النفس؛ فما أكثر الأمانى التي تبدو نبيلةً ما دامت مجانية، فإذا طُلب منها أن تدفع شيئاً من المال أو الوقت أو الراحة انكشف مقدار صدقها.

وقوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ يجعل الخير مقدمةً للكلمة، كأن من أراد أن يقترب من مقام الرسالة فليمر أولاً بقلب محتاج. لا تجعل لقربك من النبي ﷺ أثراً يعود إلى ذاتك وحدها، بل اجعل للفقير فيه نصيباً. ليست الروحانية الإسلامية هروباً إلى علاقة فردية مغلقة، يطلب فيها الإنسان لذته الوجدانية وينسى آلام الخلق؛ بل كل اقتراب صحيح من الوحي ينبغي أن يجعلك أقرب إلى الإنسان، وكل امتلاءً بحبة الرسول ﷺ ينبغي أن يترجم رحمةً بمن كان يرحمهم.

ثم يقول: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾. خير لكم؛ لأنه يحفظ وقت النبي ﷺ، ويقضي حاجة الفقير، ويعيد ترتيب دوافعكم. وأطهر؛ لأن النفس قد تتحمل في طلب الخير شوائب لا تراها، فتحتاج إلى عملٍ يكشفها ويغسلها. والطهارة هنا طهارة من الأنانية، ومن التنافس على القرب، ومن الاستكثار من الأسئلة، ومن توهم أن كثرة اللقاء دليلٌ حتمي على رفعة المقام.

ورب إنسان لم يظفر بمجلس خاص، لكنه كان عند الله أصدق ممن طال جلوسه؛ لأن القرب من النبي ﷺ ليس قرب أجسادٍ وحده، بل قرب اتباعٍ ومحبةٍ وأدب.

ومع التكليف يأتي رفع الحرج عن العاجز: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. لم يجعل الله الفقر حاجزاً بين صاحبه وبين السؤال والحاجة، ولم يحول الصدقة إلى ثمن لا يدخل الفقير إلا بدفعه؛ فالشريعة التي جاءت لتقيم الكرامة لا تجعل المال مفتاحاً حصرياً لأبواب العلم والهدى. من لم يجد فله سعة الرحمة، لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها، ولا يجعل القدرة المالية ميزاناً لقيمة الإنسان عنده.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ثم يأتي العتاب الشفيف الكاشف: ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾؛ أخفتم الفقر أو ثقل عليكم أن تقدموا صدقةً قبل المناجاة؟ إن السؤال لا يبحث عن جوابٍ لفظي، بل يضع النفس أمام مرآتها. كنتم تحبون الحديث الخاص ما دام لا يكلفكم شيئاً، فلما ارتبط ببذل المال تراجعت الرغبة؛ فما مقدار الحاجة إذن؟ وما مقدار ما كان فيها من الفضول أو طلب المكانة؟ هكذا يختبر الله العواطف التي نزعها بأعمال تكشف حقيقتها. نزع محبة الخير، ثم يظهر مقدارها حين يطلب منا الخير وقتاً. ونزع الرحمة، ثم يظهر مقدارها حين تكلفنا مالا. ونزع التعلق بالعلم، ثم يظهر مقدار ذلك حين يطلب منا صبراً وتواضعاً ومراجعةً للنفس.

وقد رُفِعَ هذا التكليف وخفف الله عن المؤمنين: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. وفي هذا ملح من التربية الرحيمة؛ فقد شرع الله الحكم ليظهر ما في النفوس ويهذب السلوك، ثم نسخه بعد أن أدى وظيفته. لم يكن المقصود جمع الصدقات لذاتها، بل إيقاظ الضمائر وتعليمها أن الوصول إلى الرسول ﷺ ليس مجالاً للعبث والتراحم الأناني. وحين حصلت التربية جاء التخفيف، لأن الأحكام في يد الحكيم ليست أثقلاً توضع بلا غاية، بل أدوية بمقادير، يعلم متى يشرعها ومتى يرفعها.

لكن رفع التكليف الخاص لا يعني انتهاء مسؤولية الإيمان، ولهذا أعادهم إلى الأصول الكبرى: ﴿فَأَقِمْ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. فإذا سقطت عنكم صدقة المناجاة، فلا تسقط الصلاة، ولا الزكاة، ولا الطاعة. كأن الآية تمنع النفس من أن تنشغل بالتكاليف العارضة عن الأعمدة الدائمة، أو أن تتخذ التخفيف ذريعة إلى التراخي العام. فالدين ليس مشهداً واحداً من الحماسة، بل بناءٌ تقيمه الصلاة كل يوم، وتطهره الزكاة كل عام، وتحفظ اتجاهه الطاعة في كل منعطف.

والصلاة صلةً بالله، والزكاة صلةً بالخلق، والطاعة انتظامٌ تحت قيادة الوحي؛ وبذلك تبني الشخصية المؤمنة في توازنها الكامل. من صلى ولم يترك قد ادعى صلةً بالخالق لم تظهر رحمته في حق المخلوق، ومن أعطى المال ولم يطع الله فقد يجعل إحسانه تابعاً لهواه، ومن أطاع في

الظاهر دون قلب تعممه الصلاة قد تتحول الطاعة عنده إلى عادة بلا روح. لذلك جمعت الآية هذه الأصول حتى لا يتجزأ الإيمان في النفس.

ثم يعود الختام الذي تكرر في السورة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. لم يقل: بما تقولون؛ لأن الامتحان هنا امتحان العمل. قد يقول الإنسان إنه مستعد للبدل، لكن الله يعلم ماذا فعل حين دُعي إليه. وقد يصف نفسه بالطاعة، لكن الخبرة الإلهية تعلم مواضع التردد والانتقاء. إن أكثر صورنا خداعاً ليست الصور التي نصنعها للآخرين، بل الصورة التي نصنعها لأنفسنا ثم نصدقها؛ نرى أنفسنا كرماء لأننا نحب فكرة الكرم، وعلباء لأننا نحب الكلام في العلم، ومخلصين لأننا نكره أن نتهم بالرياء. لكن الله لا يحاسبنا على الصورة التي أحببناها لأنفسنا؛ وإنما على الحقيقة التي ترجعها الأعمال.

وهكذا تعبر بنا هذه الآيات من مجلس يفسح فيه المؤمن لأخيه إلى قلب يفسح فيه لأمر الله، ومن مقعد يتنازل عنه إلى مال يقدمه، ومن رغبة في القرب من الرسول ﷺ إلى طاعة ثبت ذلك القرب في الحياة. وتظل السورة تعلمنا أن الإيمان لا يسكن المعاني الكبرى وحدها، بل يتجسد في المسافات الصغيرة بين الأجساد، وفي النبرة التي نخطب بها الآخرين، وفي مقدار ما نحتمل من التنازل، وفي السؤال الذي نريد أن نأخذ به من وقت غيرنا، وفي الصدقة التي تكشف صدق رغبتنا، وفي الاستجابة حين يقال لنا: افسحوا، أو انهضوا، أو أعطوا، أو أطيعوا. فالقلب الذي كتب الله فيه الإيمان لا يُعرف بادعائه أنه ممتلئ، بل بما يصنعه من فسحة في هذا العالم.

حين يصبح الكذب وطناً: الوجه التي تعيش بين الصفوف
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن ربّت السورة المؤمنين على طهارة النجوى، وأدب المجالس، وصدق الطاعة، تفتح أمامهم المشهد المقابل: نفوس لم تحسم انتماءها للحق، ولم تملك شجاعة الانضمام الصريح إلى الباطل، فاختارت أن تعيش بين الحدين، تأخذ من المؤمنين أمان الظاهر، وتمنح أعداءهم ولواء الباطن. إن المنافق لا يقف في المنتصف لأنه باحث متجرد لم يهتد بعد إلى الطريق، بل لأنه يريد مكاسب الجانبين من غير أن يتحمل تبعه موقف واحد. قلبه هناك، ووجهه هنا؛ سره مع قوم، ولسانه مع آخرين؛ فإذا سُئل عن حقيقته احتمى بالحلف، لأن حياته صارت بناءً من الكذب يحتاج كل يوم إلى كذب جديد يحميه من الانهيار.

﴿تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ والولاية أعمق من معرفة عابرة أو معاملة دينية جائزة، إنها قرب في النصرة والالتواء والسر، واختيار للجهة التي يمنحها الإنسان ثقته ومودته ومصالحه حين تتعارض مع الحق. قد تتحرك الأجساد داخل جماعة المؤمنين، لكن القلوب تكون معلقة بمركز قوة أخرى، تستمد منها شعورها بالأمان، وتنتظر منها الاعتراف، وتقدم رضاها على رضا الله. وهنا تظهر خطورة الولاء؛ فهو ليس شعاراً يرفعه اللسان فقط، بل المركز الذي يرجع إليه القلب عند الخوف، والجهة التي ينحاز إليها الإنسان حين تتزاحم المصالح، والميزان الذي يحدد له من يحب ومن ينصر ومن يخذل.

ثم تكشف الآية غريبتهم المزدوجة: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾. لقد ظنوا أن الوقوف بين الصنفين يمنحهم أماناً معاً، فإذا به يسلبهم طمأنينتهما جميعاً. ليسوا من المؤمنين؛ لأن الإيمان لم يدخل قلوبهم، وليسوا من أوليائهم الآخرين دخول صدق كامل؛ لأن العلاقة التي تقوم على الخيانة لا تمنح صاحبها انتماءً حقيقياً. إن من يبيع قومه سراً لا يثق به الذين اشتروه، لأنهم يعلمون أن الذي خان مرة يستطيع أن يخون ثانية. وهكذا يكون النفاق منفى داخلية؛ يعيش صاحبه بين الناس ولا يسكن إلى أحد، ويتسم لهذا وهو يخشى أن يكشفه ذاك، ويحفظ لكل جماعة وجهاً حتى ينسى وجهه الحقيقي.

إن وضوح الانتماء الأخلاقي راحة لا يعرفها صاحب الوجهين. المؤمن قد يدفع ثمن موقفه، لكنه ينام بقلب واحد؛ أما المنافق فيحتاج إلى ذاكرة متشعبة ليتذكر ما قال لكل شخص، وإلى حذر دائم كي لا تلتقي رواياته المتناقضة، وإلى أقنعة تتغير بتغير المجالس. وما أثقل أن يعيش الإنسان عمره حارساً لصورة كاذبة عن نفسه! يرهقه انكشاف الحقيقة أكثر مما ترهقه الحقيقة ذاتها، ويخاف من الصدق لأنه بنى مصالحه على غيابه.

ثم يبلغ فسادهم موضعاً أشد: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ليست المشكلة أنهم توهّموا خطأ ثم حلفوا بما ظنوه، وإنما يعلمون أن ما يقولونه كذب، ثم يستدعون اسم الله ليجعلوه ستاراً له. وهذا من غاية الانقلاب في القلب: أن تتحول قداسة الله من رادع عن الكذب إلى أداة لترويجه، وأن يستعمل الإنسان القسم الذي ينبغي أن يوقظه لتعميق غفلته وخداع غيره. ما أخطر الدين حين يفصل عن التقوى! قد تبقى ألفاظ الله على اللسان، لكنها تُسخر لخدمة الهوى، فيحلف الظالم أنه ما ظلم، ويقسم الخائن أنه وفيّ، ويجعل المنافق كثرة أيمانه بديلاً من وضوح سيرته.

والصدق لا يحتاج غالباً إلى هذا الحشد من الأيمان؛ لأنه قائم في نفسه، تشهد له القرائن واستقامة السلوك. أما الكاذب فيحاول أن يعرض هشاشة المعنى بغلظة التأكيد، فيرفع صوته، ويكرر القسم، ويغضب من السؤال، لا لأن الحقيقة أهينت، بل لأن القناع اقترب من السقوط. ومن علامات المرض أن يصبح الحلف عادة تسبق الثقة، كأن الإنسان يعلم في باطنه أن كلمته وحدها لم تعد تملك وزناً.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾؛ فالأمر ليس تهديداً فارغاً، ولا احتمالاً مؤجلاً قد يقع وقد لا يقع، بل جزاءً أعدّه العدل الإلهي لأعمالٍ استحققت شدته. وقد وُصف العذاب بالشدة لأن النفاق لم يكن خاطراً بالقلب ثم قاومه صاحبه، بل كان عملاً ممتداً، وولايةً للباطل، وحلفاً على الكذب، وخداعاً لجماعة المؤمنين. لقد ساء ما كانوا يعملون؛ ولم تقل الآية فقط: ساء ما كانوا يقولون، لأن الكذب عندهم تحول إلى نظام حياة، وإلى علاقاتٍ وخططٍ وتحالفاتٍ ومواقف. فالقول إذا تكرر واستقرت عليه النية صار عملاً يشكّل المصير.

وفي قوله: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى الاستمرار؛ إذ لم تكن زلّةً عارضةً، بل عادةً مألوفة. والخطيئة حين تتكرر تفقد في عين صاحبها بشاعتها شيئاً فشيئاً؛ يبدأ متردداً، ثم يعتاد، ثم يدافع، ثم يغضب إذا سُمي فعله باسمه. وفي المرحلة الأخيرة لا يعود الإنسان مجرد فاعلٍ للشر، بل يصبح حاملاً لمعياره؛ يقيس الأشياء من داخله، فيرى الصدق سذاجةً والخيانة ذكاءً والثبات جموداً والنفاق مرونة. عندها يكون الخطر قد بلغ القلب، فلا يعود يحتاج فقط إلى ترك فعلٍ منفرد، بل إلى انقلابٍ كامل يعيد إليه القدرة على رؤية القبح قبيحاً.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾

لقيد كانت الأيمان في أصلها تعظيماً لاسم الله وتأكيذاً للصدق، لكنهم ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي ترساً يحتمون وراءه. لم يعودوا يقسمون لقيموا الحق، بل ليتفادوا انكشاف الباطل. والإنسان قادرٌ على تحويل أشرف الأدوات إلى أقبحها إذا فسد قلبه؛ قد يجعل العلم وسيلة للجدل، والعبادة طريقاً للسمعة، والقراءة غطاءً للمحاباة، والشعار الديني ستاراً للمصلحة، واسم الله جُنَّةً للكذب. ليست قداسة الوسيلة وحدها كافية لتقديس من يستعملها؛ فالعبرة بالغاية التي تتحرك إليها وبالقلب الذي يحملها.

والجُنَّة تستر من وراءها، وهؤلاء صنعوا من الكلام الديني جداراً يمنع الآخرين من رؤية حقيقتهم. إذا اتهموا بالخيانة حلفوا، وإذا ظهرت قرينة على كذبهم أكثروا من إظهار الولاء، وإذا اقترب الناس من سرائرهم احتموا ببلاغة التأكيد. وهكذا يستطيع الظاهر المتدين أن يصير حجاباً كثيفاً يحجب فساد الباطن، لا لأن الدين يصنع النفاق، بل لأن المنافق يعرف مكانة الدين في قلوب الناس فيستعملها للوصول إليهم. إن أخطر الأقنعة ما صُنع من مادة مقدسة، لأن الناس يهابون الاقتراب منه، ويحسون مساءلة صاحبه عدواناً على المقدس نفسه.

لكن ضررهم لا يقف عند حماية أنفسهم: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقد تُقرأ دلالة فعلهم في أنهم صدوا غيرهم، وفي أنهم أعرضوا هم عن السبيل؛ وكلا المعنيين يلتقيان، لأن من يخرف وهو يرتدي لباس الهداية لا يضل وحده. يراه الناس فينسبون تناقضه إلى الدين، ويسمعون أيمانهم ثم يكتشفون كذبه، فتضطرب ثقتهم بكل خطاب صادق. وكم من إنسان لم ينفر من الحق نفسه، وإنما نفر من شخصٍ احتكره ثم ناقضه! إن سيئة المنافق مضاعفة؛ يسيء إلى نفسه، ثم يضع على وجه الحق ملاحقته، فيحسب البعيدون أن ما رأوه فيه هو صورة الطريق.

وقد يصد المنافق عن سبيل الله من غير أن يقول لأحد: لا تؤمن. يكفي أن يجعل التدين مرادفاً للمصلحة، وأن يحول المبادئ إلى أوراق تفاوض، وأن يتحدث عن الوفاء ثم يبيع أصحابه عند أول خوف، حتى يقول الناظر: إذا كانت هذه ثمرة الطريق فما حاجتي إليه؟ ولهذا كان إصلاح أخلاق المتنسبين إلى الحق جزءاً من الدعوة إلى الحق؛ فالناس لا يقرؤون الكتب وحدها، بل يقرؤون الوجوه التي تحملها، ورب كلمة صامته يكتبها الصدق في السلوك أبلغ من آلاف الخطب.

وجاء الجزء: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾. كانوا يطلبون بالأيمان الكاذبة حفظ صورتهم وكراماتهم أمام الناس، فانتهاوا إلى الإهانة. من جعل حياته مطاردةً للهيبة المصطنعة فقد يشتريها أياماً، لكنه يخسر الكرامة الحقيقية التي لا يهبها إلا الله. إن العزة لا تولد من إجبار الناس على

تصديقك، بل من أن تكون عند الله صادقاً ولو أساء الناس فهمك؛ والمهانة لا تبدأ يوم القيامة وحده، بل تبدأ حين يحتاج الإنسان إلى الكذب كي يبقى واقفاً.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

بعد سقوط جنة الأيمان، تسقط جدران أخرى ظنوا أنها تحميهم: الأموال والأولاد. فالإنسان حين يضعف يقينه يبحث عن الامتداد في الأشياء التي يملكها؛ يرى في المال قدرة على حل كل أزمة، وفي الأبناء بقاءً لاسمه وقوةً لظهره، وفي كثرة التابعين دليلاً على صوابه. لكنها كلها نعم تعمل داخل الحدود التي خلقها الله لها، ولا تستطيع أن تعف بين الإنسان وربه: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾.

لم يقل: لن تغني عنهم كثيراً، بل ﴿شَيْئاً﴾؛ تنكيرٌ يحو كل مقدار متوهم. في الموقف الذي يحتاجون فيه إلى الخلاص الحقيقي، لا يشتري المال لحظة نجاة، ولا يحمل الابن عن أبيه خطيئة، ولا يتحول العدد إلى حصن. إن الأشياء التي ملأت مساحة الرؤية في الدنيا حتى حجب الله، ستظهر يوم القيامة صغيرة عاجزة. لم تكن الأموال شراً في ذاتها، ولا الأولاد؛ لكن الشر أن يطلب منهما ما لا يملكانه، وأن يتحولوا من نعمتين تُشكران إلى إلهين صغيرين يطمئن إليهما القلب أكثر من اطمئنانه إلى الله.

ولفظ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يوحى بطول الملازمة؛ لم تعد النار حادثة تمر بهم، بل صارت صحبتهم ومقامهم. يا له من انقلاب فادح: كانوا في الدنيا يختارون صحة باطلة ويظنونها تحميهم، حتى آل بهم الاختيار إلى صحة النار. فالصحة التي يختارها القلب ليست تفصيلاً عابراً؛ إنها طريق خفي نحو المصير. من أحب طريق قوم ونصر باطلهم وتشكل بمعاييرهم، أوشك أن يحشر في جهنم؛ لأن القلوب تسير إلى من تولت، وإن بقيت الأجساد زمناً في صف آخر.

الكذب الذي يعبر القبور

﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

هذا من أعجب مشاهد النفس التي طال مقامها في الكذب حتى صار الكذب طبيعتها الثانية. يبعثهم الله، وتفتش حجب الدنيا، ويقفون بين يدي من يعلم السر وأخفى، ومع ذلك ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾. إنهم يحملون عاداتهم معهم إلى ساحة الحقيقة المطلقة؛ كأن طول استعمال الكذب قد جعلهم عاجزين عن تصور طريق آخر للنجاة. كانوا كلما حُوصروا في الدنيا خرجوا بضم ينقد صورتهم، فلما حُوصروا يوم القيامة استدعت نفوسهم الآلية نفسها، غير مدركة أن الذي يحلفون له هو الذي أحصى ما نسوا وشهد ما أخفوا.

إن الذنب لا يبقى فعلاً خارجياً يمر بالإنسان؛ التكرار يحفره في الروح حتى يصير هيئة فيها. من يكرر الكذب لا يجمع أكاذيب منفصلة فحسب، بل يصنع نفساً كاذبة، ترى العالم من خلال الزيف وتستجيب به تلقائياً. ومن يتواضع مرة بعد مرة لا يؤدي أعمالاً متناثرة، بل يبني نفساً

متواضعةً يسهل عليها الحق. ولذلك كانت مجاهدة العادات الصغيرة قضية مصير، فما تكرره اليوم بوعي محدود قد يصبح غداً أنت نفسك، وقد تستيقظ يوماً لتجد أنك لم تعد تستعمل الخلق، بل الخلق هو الذي يستعملك.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ وهذا قلب المأساة. لم يكونوا يعرفون أنهم فارغون، بل كانوا يظنون أن تحت أقدامهم أرضاً، وأن لهم حجةً ومكانةً وقوة. والباطل لا يعيش دائماً في صورة شك مرتجف؛ قد يمنح صاحبه يقيناً زائفاً، خاصةً إذا أحاط نفسه بمن يكررون كلامه ويصفقون له. يسمع الإنسان رأيهِ من أفواه كثيرة فيحسب الكثرة دليلاً، ويرى نجاح خطته فيحسب النجاح برهاناً على رضا الله، ويتمكن من خداع الناس فيظن أنه خدع الحقيقة. ولهذا كان أخطر الضلال ما اقترن بالثقة، وأشد المرض ما جعل المريض يرفض الدواء لأنه يرى نفسه صحيحاً.

ثم تأتي أداة الاستفتاح والتنبيه: ﴿أَلَا﴾، كأن الحقيقة التي ستقال بعدها تحتاج أن تُسمع فوق ضجيج دعاوهم: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. جاء الضمير الفاصل ليحصر فيهم الوصف ويثبتته؛ فالكذب لم يعد حادثةً في سيرتهم، بل عنواناً جامعاً لها. كذبوا على المؤمنين، وكذبوا في أيمانهم، وكذبوا على أنفسهم حين حسبوا أنهم على شيء، ثم حاولوا حمل الكذب إلى موقف الحساب؛ فكان لا بد أن يتزع عنهم كل اسم مزخرف، ويبقى الاسم الذي صنعته أفعالهم.

حين يستولي الشيطان على الذاكرة
﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾؛ لفظٌ يرسم تمكناً واستيلاءً وإحاطة. لكنه لم يبدأ معهم بهذا الاستحواذ الكامل، ما من قلب يصبح أرضاً للشيطان دفعةً واحدة. تبدأ الحكاية بخاطرٍ يُستضاف بدل أن يُطرد، ثم شهوة تُطاع، ثم معصية تُبرر، ثم توبة تُؤجل، ثم ظلمة يألفها البصر حتى يستوحش النور. وفي كل مرة يتنازل الإنسان عن موضع من قلبه، يتقدم الشيطان خطوة، حتى يصبح الغريب صاحب البيت، ويصبح صاحب البيت أسيراً فيه.

وكانت نتيجة الاستحواذ: ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾. لم يقل: فأنساهم وجود الله؛ فقد تكون ألسنتهم عارفةً باسمه، بل قد يحلفون به كما مر، لكنهم نسوا ذكره الذي يوقظ القلب ويضبط السلوك. إن النسيان هنا ليس فقدان معلومة، وإنما غياب الحقيقة عن موضع تأثيرها. يعرف الإنسان أن الله يراه، ثم يتصرف كأنه لا يراه؛ ويعلم أن الموت آت، ثم يبني حياته كأنه خالد؛ ويقر أن الرزق بيد الله، ثم يبيع دينه خوفاً على رزقه. هذه معرفة لم تتحول إلى ذكر، لأن الذكر ليس مرور الاسم على اللسان وحده، بل حضور المذكور في القلب حضوراً يغير القرار.

وما أشد حاجتنا إلى فهم هذا الفرق! قد يكثر الإنسان من الألفاظ الدينية، لكن الله غائب عن ميزان اختياراته؛ فإذا تعارضت مصلحته مع أمر ربه اختار المصلحة، وإذا خلا بالمعصية

نسي المراقبة، وإذا مُدح انتفخ، وإذا مُنع اعترض، وإذا خاف تعلق بالخلق. إنه يذكر الله صوتاً وينسأه موقفاً. أما الذاكر حقاً فهو الذي يدخل ذكر الله بين الرغبة والفعل، وبين الغضب والكلمة، وبين الخوف والتنازل، فيصنع حضور الله في قلبه مسافةً تمنعه من السقوط.

ثم يمنحهم القرآن اسمهم الجامع: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾. الحزب ليس تجمعاً رسمياً بالضرورة، بل وحدة في المرجعية والغاية والمنهج. قد تتباعد أزمنة أفرادهم وبلدانهم ولغاتهم، لكنهم حزب واحد ما دام الشيطان يقود اتجاههم: يزين لهم الباطل، ويغريهم بالاستكبار، ويجعل الدنيا أكبر همهم، ويقطع صلتهم بالذكر. وليس معنى نسبتهم إلى حزبه أنهم يرونه ويتلقون منه أوامر مباشرة، بل إنهم يحققون غايته، ويتبعون وساوسه، ويعيدون إنتاج منطقته في الأرض: تقديم الهوى على الهدى، والقوة على الحق، والمصلحة العاجلة على المصير الأبدي.

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. قد يربحون جولةً، أو يجمعون مالاً، أو يصلون إلى سلطان، أو يملأون المشهد ضجيجاً، لكن القرآن لا يسمي النتيجة باسم اللحظة. الخسارة الحقيقية لا تُقاس بما خرج من يدك في الطريق، بل بما بقي لك عند النهاية. ورب خاسر في حسابات السوق رابح عند الله، ورب منتصر في نشرات الأخبار مهزوم في ميزان الأبد. إن الشيطان يغري أتباعه بالأرباح القريبة كي يخفي عنهم الخسارة الكبرى، يعطيهم لذة الغلبة ويأخذ منهم طمأنينة الضمير، يمنحهم إعجاب الناس ويسلبهم نظر الله بالرضا، يفتح لهم أبواب القصور ويغلق دونهم باب القلب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾

تعود السورة إلى المحادثة التي ذكرتها من قبل، لكن التعبير هنا أشد حسمًا: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾. لم يقل: سيدلون تحسب، بل جعلهم داخل طبقة الأذلين، كأن الذل محيط بهم وإن تسترأ مؤقتاً بمظاهر القوة. ذلك لأن العزة ليست صورةً خارجية، وإنما صلةً بالمصدر الذي لا تزول عزته. فمن انقطع عن الله وواجه رسوله، انقطع عن أصل العزة، ولو أحاطت به الجيوش والهاطات. قد يخافه الناس ولا يحترمونه، وقد يطيعونه ولا يحبونه، وقد يخشون أمام سلطانه وتلعن قلوبهم؛ وهذه ليست عزة، بل خوف مؤجل الزوال.

وما أذل الإنسان حين يعبد نظرة الناس إليه! يبيع الحق كي يبقى محبوباً، ويتلون كي لا يفقد مكانته، ويصمت عن الظلم لأن كلمة الصدق قد تنزله من مجلسه. يظن أنه يحفظ عزته، وهو في الحقيقة يسلم زمام نفسه لمن يريد رضاهم. العزة أن لا يملك أحد شراء ضميرك، وأن تعرف أنك عبد لله فلا تكون عبداً لتصفيق أو تهديد أو منصب.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ أَنا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

ها هنا ترتفع السورة من همسات المنافقين إلى الكلمة التي حُسم بها مصير الصراع: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾. وما كتبه الله لا تحوه خطط البشر، ولا تؤخر نفاذه كثرة العقبات، ولا يحتاج إلى

تصديق الناس ليكون حقاً. ﴿لَا غَلْبَ لَنَا وَرُسُلِي﴾؛ توكيدٌ يهز أوهام القوة الأرضية، ويضع المؤمن أمام الحقيقة النهائية: الغلبة لله ورسوله.

لكن الغلبة الإلهية أوسع من الصورة العاجلة التي يتخيلها الإنسان. قد يُقتل رسولٌ أو يُؤذى داعية، وقد تمر بالحق مراحل يبدو فيها محاصراً، لكن الرسالات تنتصر بإقامة الحجة، وبقاء الكلمة، وبسقوط مشاريع المبطلين وإن طال الزمن، وبالعاقبة التي يجمع فيها الله لأوليائه نصر الدنيا أو كرامة الآخرة. إن من قُتل ثباتاً على الحق لم يُهزم؛ المهزوم هو من استطاع خصمه أن ينتزع منه الحق قبل أن ينتزع روحه. والغلبة الكبرى أن يبقى الوحي حياً بعد موت معانديه، وأن تتحول قصور الطغاة إلى أطلالٍ بينما تنلى كلمات الأنبياء في المحارب والبيوت.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ فهو قويٌّ لا يعجزه تنفيذ ما كتب، عزيزٌ لا يُغلب ولا يُمانع. والمؤمن لا يستمد يقينه من عدد أنصار الحق في لحظة محدودة، بل من قوة من ينصر الحق. إذا اتصل الضعيف بالقوي لم يعد ضعفه هو الحقيقة الكاملة، وإذا احتمى الذليل بالعزيز لم تعد نظرة الناس ميزانه. ولذلك يربي القرآن أصحابه على طول النفس؛ فلا ينهارون حين يتأخر النصر، ولا يبيعون مبادئهم لأن الباطل يبدو أعلى صوتاً. يعلمون أن الزمن ليس إلهاً مستقلاً، وأن التاريخ لا يكتب نهايته وحده، وأن وراء تدافع الأحداث إرادةٌ قالت: ﴿لَا غَلْبَ لَنَا وَرُسُلِي﴾.

حين يُكتب الإيمان في القلب

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

تبلغ السورة ذروتها في هذه الآية التي ترسم الحد الفاصل داخل القلب. وليس المراد بها إلغاء ما أمر الله به من بر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل مع المخالف، والإحسان إلى من لم يحارب الدين؛ فهذه كلها أوامر محكمة. وإنما الحديث عن المودة الولائية التي تجعل القلب نصيراً لمن حادَّ الله ورسوله، راضياً بعداوته، مقدماً رابطته على رابطة الإيمان حين يقع التعارض. يمكن للمؤمن أن يحسن إلى قريبه المخالف، وأن يرحمه، ويدعوه، ويؤدي حقه، لكنه لا يجعل محادثته لله موضع محبة ورضا، ولا يبيع الحق ليحفظ رابطة الدم.

والآية تبدأ بصيغة تنفي إمكان اجتماع حقيقتين متناقضتين في قلب مستقر: إيمانٌ بالله واليوم الآخر، ومودة لمن اتخذ محادَّة الله ورسوله طريقاً. فقد تضعف النفس، وقد يلتبس عليها الأمر، لكن الإيمان حين يستقر يعيد ترتيب الحب؛ فلا يعود النسب هو الحقيقة العليا، ولا المصلحة، ولا الوطن، ولا العشيرة، بل يصبح الله هو المركز الذي تُوزن عنده الروابط جميعاً. لا يدعو القرآن الإنسان إلى أن يكون بلا عاطفة، بل إلى أن لا يجعل العاطفة إلهاً؛ وأن يظل الحب محكوماً بالحق، لا أن يصير الحق تابعاً لمن نحب.

ثم تسمى الآية أقوى الروابط: ﴿أَبَاءُهُمْ أَوْ أَبْنَاءُهُمْ أَوْ إِخْوَانُهُمْ أَوْ عَشِيرَتُهُمْ﴾. الأب أصل ينتمي إليه الإنسان، والابن امتداد يرى فيه مستقبله، والأخ سند يشاركه الذكريات، والعشيرة دائرة تحميه وتمنحه اسمه الاجتماعي. وكأن الآية تمر على الإنسان من جذره إلى فرعه، ومن خاصته إلى محيطه، ثم تقول: إذا وقفت هذه الروابط موقف الحادة لله، فلا تجعلها أعلى من ربك. ليس المطلوب أن تنكر فضل أبيك، أو تطفئ رحمتك بابنك، أو تقطع حق أخيك، بل أن تعرف أن كل رابطة أرضية تستمد مشروعيتها من وقوفها تحت رابطة العبودية، ولا تملك أن تطلب منك خيانة الحق باسم الوفاء.

كم من باطل بقي في المجتمعات لأن الناس قالوا: هؤلاء آبائنا! وكم من ظلم نصر لأن فاعله ابن القبيلة أو الحزب أو العائلة! وكم من إنسان عرف الحق ثم خذله خشية أن يغضب أخاً أو صديقاً! إن العصبية لا تطلب منك دائماً أن تنكر الحق نظرياً، يكفيها أن تسكت حين يظلم قريبك، وأن تجد له ألف عذر، ثم لا تجد لمظلومه عذراً واحداً. والإيمان يحمر العدل من القربة: فلا يجعل حبك لأحد برهاناً على صوابه، ولا بغضك لآخر دليلاً على خطئه.

ثم يأتي الوصف الذي يكشف أصل ثباتهم: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾. لم يقل: كتب عليهم الإيمان، بل ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ كان الإيمان صار نقشا داخلها، لا طلاءً خارجاً تزيهه أول عاصفة. الكتابة تدل على الثبوت والإحكام؛ فليست عاطفة عابرة تشتعل في مجلس ثم تحب عند الامتحان، ولا فكرة ذهنية لا تتجاوز حدود الكلام، بل حقيقة مستقرة تعيد تشكيل الحب والخوف والاختيار.

والذي كتب هو الله؛ وفي ذلك تشریف وأمان. لقد صدقوا في طلب الحق، وجاهدوا أهواءهم، وقدّموا رضا الله حين تزامت الروابط، فجازاهم بأن ثبت الإيمان في موضع الثقل. والقلب سمي قلباً لكثرة تقلبه؛ تعصف به الرغبة، ويهزه الخوف، وتسحبه القربة، وتغريه المصلحة. فإذا كتب الله فيه الإيمان لم يعد معنى ذلك أنه لا يتألم ولا يتردد لحظة، بل أن له أصلاً ثابتاً يعود إليه، وبوصلة لا تضيع وإن اضطربت الرحلة.

هناك فرق بين أن يعرف العقل الإيمان، وأن يحب القلب الإيمان، وأن يكتب الإيمان في القلب. قد يعرف الإنسان الحق ولا يريده، وقد يحبه في أوقات الصفاء ثم يتركه عند ثقل التكليف، أما إذا كتب في القلب صار جزءاً من هوية الروح؛ يتألم الإنسان لخالفته أكثر مما يتألم لفقد مكسب، ويشعر بالغرابة إذا ابتعد عنه كما يشعر الجسد بالغرابة عن موطنه. ليست الكتابة إكراهاً يلغي اختيار الإنسان، بل توفيق يهب الله ثماره لمن صدق وسلك طريقه، فيزيده هدىً على هداه وثباتاً على مجاهدته.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾؛ أي بقوةٍ ونورٍ وثبیتٍ من عنده، لا أن الروح جزءٌ من ذات الله سبحانه؛ تعالى الله عن التجزؤ والحلول، وإنما هي روحٌ مخلوقةٌ أضافها إليه إضافةٌ تشريف، أو تأييدٌ خاصٌ يحيي القلوب ويقويها. فالإنسان لا يثبت في هذه المفاصل بقوة إرادته المجردة وحدها. حين يقف الحق في جهةٍ ويقف أحب الناس إليه في الجهة الأخرى، تتنازع قوى عميقة، ويحتاج إلى مددٍ يتجاوز طاقته. يؤيده الله بنورٍ يرى به، وقوةٍ يصبر بها، وسكينةٍ تمنعه من التمزق، فلا يتحول ثباته إلى قسوة، ولا رحمته إلى تنازل.

وهذا التأييد يعلم المؤمن التواضع؛ فإذا ثبت في فتنه فلا يقل: إنما ثبتت لقوة نفسي، بل يعرف أن الله هو الذي أمسك قلبه. كم من إنسان ظن أنه أشد الناس يقيناً، فلما جاء الامتحان تبددت كلماته؛ وكم من قلب كان يخشى ضعفه، فلما صدق مع الله أنزل عليه من التأييد ما جعله كالجلبل! الثبات ليس عضلةً نفسيةً يتفاخر بها المرء، بل نعمةٌ تطلب بالدعاء والمجاهدة والافتقار.

ثم تنتقل الآية من جنة القلب إلى جنة الخلد: ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. لقد تركوا شيئاً لله، وربما ذاقوا في سبيل ذلك مرارة الغربة، فعوضهم الله وطناً لا يزول. قاوموا تيارات القراية والعصبية حين تعارضت مع الحق، فأدخلهم مجتمعاً طاهراً لا محادة فيه ولا نفاق ولا نجوى بالإثم. وجرى النهر من تحت مقامهم كأن السعة التي وعد بها من أفسح لأخيه في المجلس بلغت كمالها هنا؛ فسحة لا يحدها زمن، وأمنٌ لا تحيط به مؤامرة، وصحةٌ لا يحتجى في صدورها غدر.

لكن أعظم من الجنة نفسها ذلك الإعلان الذي تدوب أمامه أشواق الروح: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. رضي عن إيمانهم وثباتهم وصدقهم، وقبل منهم ما كان ناقصاً برحمته، وأسبغ عليهم رضوانه. ورضوا عنه؛ رضوا برويئته وتدييره، وبما أعطاهم وما منعهم، وبالطريق الذي ساقهم فيه، ثم رأوا في الآخرة من جمال حكمته ما أذاب آخر سؤالٍ في قلوبهم.

إن رضا الله عن العبد أعلى من كل نعم؛ لأن الإنسان قد يدخل أحداث الدنيا وقلبه خائفٌ من زوالها أو من رفض صاحبها، أما إذا رضي الله عنه فقد بلغ الأمان منتهاه. لا يعود هناك ذنب يطارده، ولا مستقبل يخيفه، ولا عين يحتاج أن يثبت أمامها قيمته. لقد رضي عنه من كان يبحث عن رضاه في كل صلاةٍ ودعوةٍ ومجاهدة. وأما رضاه عن الله فهو اكتمال العبودية؛ أن لا يبقى في القلب اعتراض ولا ضيق، وأن يرى أن ربه لم يخذله في منع ولا ابتلاء، وأن كل طريقٍ مؤلم مر به كان ينتهي إلى هذه اللحظة.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾. في مقابل حزب الشيطان الذي أساءه الشيطان ذكر الله، يقف حزب الله الذي كتب الله في قلوب أفراد الإيمان. حزب الشيطان يجمعه النسيان، وحزب الله يجمعه الذكر؛ أولئك يتخذون أيمانهم جنةً، وهؤلاء يؤيدهم الله بروح منه؛ أولئك في الأذلين، وهؤلاء يرفعهم الله درجات؛ أولئك لهم عذاب مهين، وهؤلاء لهم رضوان وجنات؛ أولئك يحسبون أنهم على شيء، وهؤلاء على الحقيقة التي كتبها الله في قلوبهم.

والانتماء إلى حزب الله ليس لقباً تمنحه الجماعة لنفسها، ولا شعاراً يكفي رفعه، ولا نسباً يُورث من الآباء، بل صفات يمتحنها العمل: إيمان بالله واليوم الآخر، وولاء للحق فوق العصبية، وثبات أمام ضغوط القرب والمصلحة، وقلب معمور بالإيمان، وحياة تتلقى التأييد من الله. قد يكثر ادعاء الاسم، لكن الله وحده يعلم من كتب الإيمان في قلبه. ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن ينشغل بتزكية نفسه وانتزاع القلب، بل بتحقيق الصفات التي جعلها الله طريقاً إليه.

ثم تختم السورة بالحقيقة التي تصحح مفهوم النجاح كله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. الفلاح ليس أن تعبر أزمة محتفظاً بكل مصالحك، ولا أن تريح إعجاب القوم، ولا أن تنتصر في خصومة، ولا أن تمتلئ خزائنك وتكثر عشيرتك؛ الفلاح أن تصل إلى الله بقلب لم تبعه في الطريق. قد تخسر مقعداً لأنك أفسحت، ومالاً لأنك تصدقت، وعلاقةً لأنها أرادت منك خيانة الحق، ومكانةً لأنك رفضت الحلف على الكذب؛ لكنك إذا ربحت رضا الله فما خسرت شيئاً. وقد تحتفظ بكل ذلك، ثم تخسر قلبك وآخرتك، فأى شيء بقي لك؟

هكذا تبدأ سورة المجادلة بامرأة تقول، وتنتهي بقوم كتب الله في قلوبهم الإيمان. تبدأ بصوت يكاد يضعف في زحام الحياة، وتنتهي بحزب كامل انتصر لأنه عرف لأي صوتٍ يستجيب. وبين البداية والنهاية تبني السورة عالماً أخلاقياً محكماً: الله يسمع شكوى المظلومة، ويهدم الكلمة التي اهتمت كرامتها، ويحجل اللسان تبعة ما قال، ثم يراقب النجوى التي تختبئ وراء الهمس، ويهذب المجالس حتى لا تتحول إلى خرائط للكبر والإقصاء، ويمتحن صدق القرب من الرسول ﷺ بالبدل، ويكشف المنافق الذي جعل يمينه قناعاً، ثم يرد الإنسان في النهاية إلى السؤال الأعظم: أين يقف قلبك حين تتعارض روابط الأرض مع أمر الله؟

إن السورة كلها حركةٌ من الظاهر إلى الباطن. في ظاهرها بيتٌ ومجلسٌ ونجوىٌ وصدقةٌ وقومٌ يتخالفون؛ وفي باطنها معركةٌ على القلب: هل يعيش تحت سماع الله أم تحت ضغط الناس؟ هل يملك لسانه أم يطلقه ليظلم؟ هل يفسح لغيره أم يعبد مكانه؟ هل يجعل العلم طريقاً إلى الرفعة عند الله أم سلماً فوق أكثاف الخلق؟ هل يتخذ اسم الله ستاراً لمصلحته أم يجعل ذكر الله نوراً يكشف مصلحته الزائفة؟ هل تقوده القربة إلى العمى أم يقود الإيمان عاطفته إلى العدل؟

وتظل الكلمة الأولى تظلل الرحلة كلها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾. سمع المرأة وهي تشتكي، ويسمع المتناجين وهم يخفون، ويسمع المنافقين وهم يخلفون، ويسمع المؤمنين وهم يتواصون بالبر والتقوى. لا يخرج صوتٌ واحد عن ملكوته، لكن قيمة الأصوات تختلف بما تحمله القلوب: صوتٌ يصعد من مظلمة فينزل له الفرج، وصوتٌ يخفض بمؤامرة فيكتب عليه الوزر، وصوتٌ يخلف كاذباً فيتحول إلى جنةٍ من الوهم، وصوتٌ يقول الحق ولو خالفه الأب والابن والأخ والعشيرة فيكون شاهداً على قلبٍ كتب فيه الإيمان.

وكان السورة تقول للمجروح: تكلم، فالله يسمع. وللمخطئ: ارجع، فالله عفوٌ غفور. ولصاحب اللسان: احذر، فالكلمات لها تبعات. وللمتاجين: طهروا أسراركم، فالله معكم بعلمه أينما كنتم. ولصاحب المجلس: افسح، يفسح الله لك. ولطالب العلم: لا تطلب الرفعة بالمقعد، فإن الله يرفع بالإيمان والعلم. وللمنافق: لن يحميك القسم الكاذب. وللمؤمن الخائف: لن يضرك شيءٌ إلا بإذن الله. ولن تنازعته الروابط: اجعل الله أولاً، يكتب الإيمان في قلبك ويؤيدك بروج منه.

إنها سورةٌ تعيد إلى المظلوم صوته، وإلى الكلمة وزنها، وإلى المجلس أده، وإلى السر رقيه، وإلى العلم مرتبته، وإلى الولاء طهارته، وإلى القلب مركزه. فإذا خرج القارئ منها وهو لا يزال يظن أن الهمسة تضعيف، أو أن الكلمة العابرة لا تُحصى، أو أن المقعد يصنع المكانة، أو أن القربة تبرر الباطل، فما سمع بعد نبضها العميق. أما من دخلها بقلبه، فإنه يخرج وهو يشعر أن الكون كله مقام شهود، وأن حياته، مهما بدت صغيرة، تجري تحت سماع الله وبصره وعلمه؛ وأن أكرم ما يمكن أن يبلغه الإنسان ليس أن يكتب اسمه على أبواب المجالس، بل أن يكتب الله في قلبه الإيمان، ثم يقول له في نهاية الطريق: رضيتُ عنك، ويرضى العبد عن ربه، ويسكن إلى ذلك الرضا سكون النهر حين يبلغ البحر.